

رَجَب ١٤١٤هـ - ديسمبر ١٩٩٣م - يناير ١٩٩٤م

النفط والغاز ومستقبل الطاقة



القافلة
The Caravan

العدد السابع - المجلد الثاني والاربعون

December 93 -January 1994 ISSN 1319 - 0547 ردمد رجب ١٤١٤ هـ

في هذا العدد :

المدير العام
فيصل محمد البسام

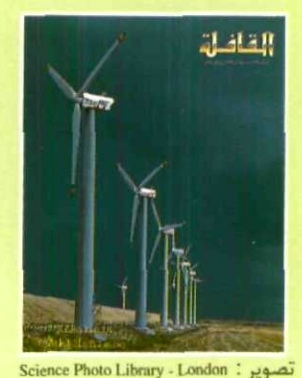
المدير المسؤول
محمد عبدالحميد طحلاوي

رئيس التحرير
عبدالله خالد الخالد

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- كل ماينشر في القافلة يعبر عن آراء الكتاب أنفسهم ولايعبر بالضرورة عن رأي القافلة أوعن اتجاهها.
- لايجوز نشر الموضوعات والصور التي تظهر في القافلة إلا بإذن خطي من هيئة التحرير.
- لاتقبل القافلة إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها.

العنوان :
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران ٣١٣١١
المملكة العربية السعودية
هاتف : ٨٧٥٦٣٩٢ - ٨٧٤٠٧٠٦
فاكس : ٨٧٣٨٤٩٠

الغلاف



تصوير : Science Photo Library - London

مجلة ثقافية تصدر شهرياً عن إدارة العلاقات العامة في شركة ارامكو السعودية لموظفيها ـ توزع مجاناً

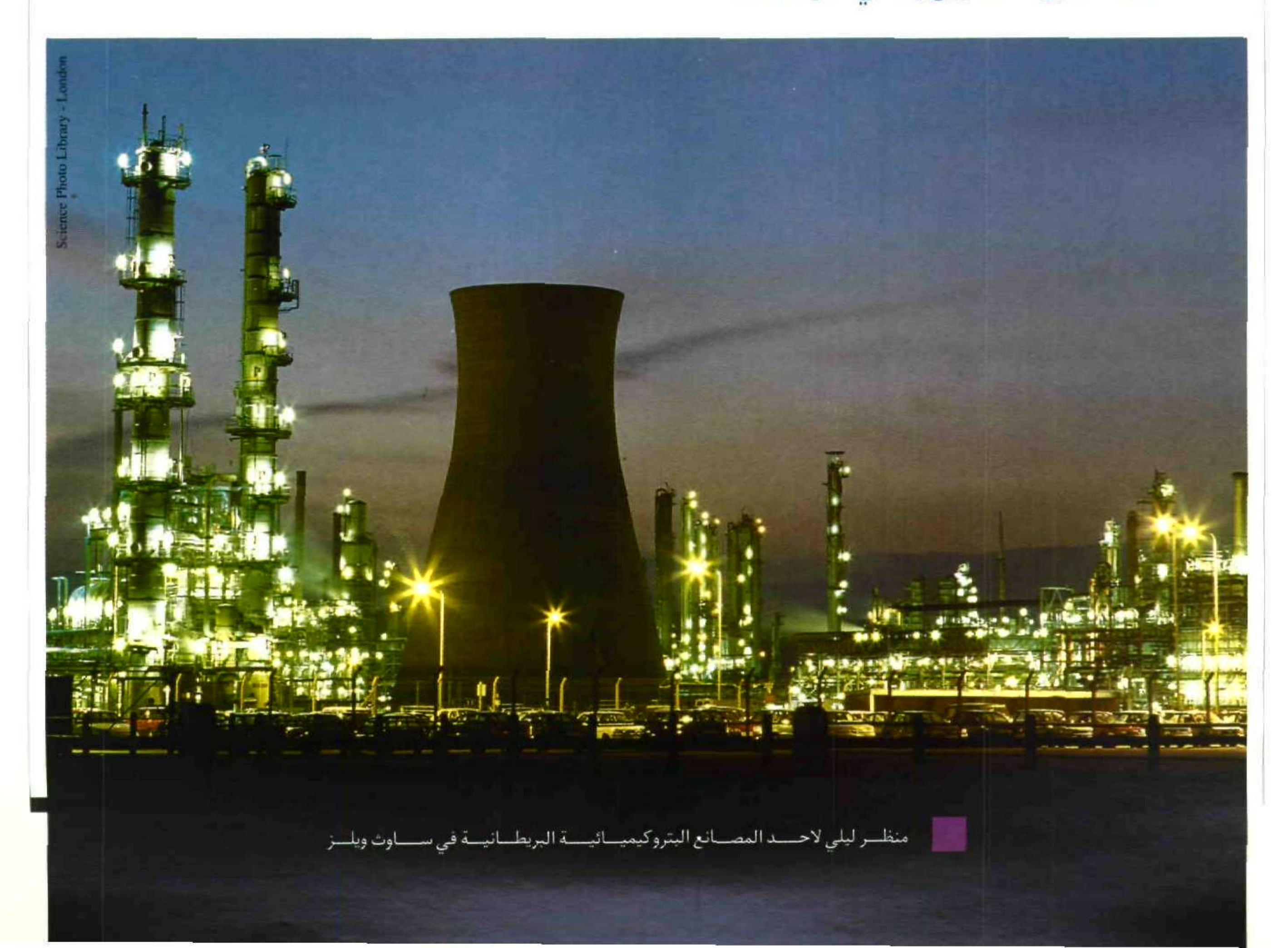
تصميم وطباعة مطابع التريكي - الدمام
Designed and Printed by Altraiki Printing Press, Dammam

النفط والغاز ومستقبل الطاقة

بقلم : المهندسة هناء دوزوم - سورية

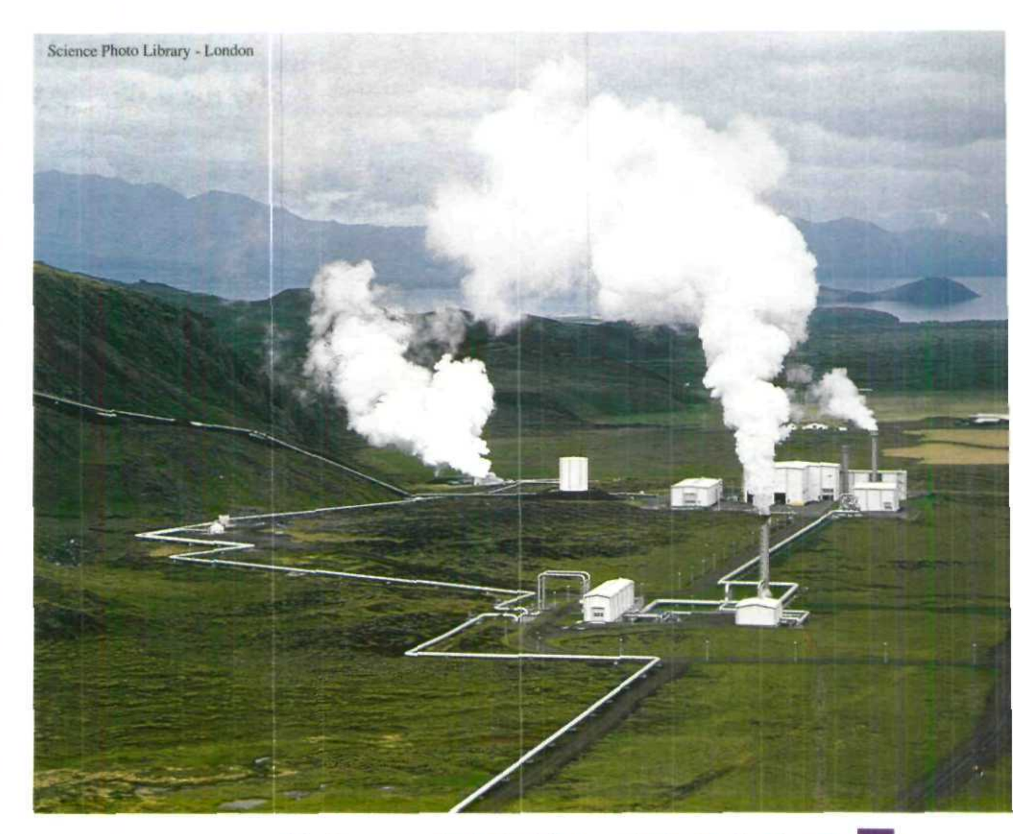
عرف الانسان النفط والغاز الطبيعي منذ آلاف السنين . وقد ورد أول ذكر للنفط في الألواح المسمارية البابلية القديمة . فقبل حوالي ستة آلاف سنة استحصل الانسان على النفط والأسفلت بالقرب من ضفاف نهر الفرات حيث بنيت هناك «الناقلات» الأولى . وهي عبارة عن سلال سعة كل منها خمسة أطنان تقريبا مطلية بالقار ، تملأ بالنفط وتنقل على طول نهر الفرات ، وكان يؤخذ من الأماكن حيث كان يتسرب إلى سطح الأرض أو من بحيرات النفط ، أو من الآبار المحفورة ، وبالطبع فإن معرفة أماكن استخراج النفط القديمة لن تدهشنا . فنحن نعلم اليوم ان اضخم حقول النفط والغاز في العالم هي في منطقة ما بين النهرين والخليج العربي .

في عام ١٨٥٩ تحققت خطوة كبيرة في تاريخ صناعة النفط عندما حفرت أول بئر في بنسلفانيا الأمريكية وبدأت الأنتاج بكميات كبيرة . وقد تزايد انتاج النفط بشكل خاص في عشرينات و ثلاثينات القرن الحالي ، إلا أن صناعة الغاز بقيت متخلفة بعض الشيء ، إذ لم يبدأ تطورها السريع إلا في الأربعينات .



Science Photo Library - London

منظر ليلي لاحد المصانع البتروكيميائية البريطانية في ساوث ويلز



إحدى المحطات الكهربائية التي تعمل بالطاقة الحرارية المستمدة من باطن الأرض

تشير الدلائل إلى أن النفط والغاز سيبقيان المصدر الرئيس للطاقة حتى القرن الواحد والعشرين ، وحسب تصورات الجيولوجيين فإن الأرض لا تزال تحتوي على احتياطيات ضخمة من الفحوم الهيدروجينية القيمة . ومع ذلك فإن الفترة التي سيستمر فيها النفط والغاز يلعب الدور الرئيس المسيطر في ميزان الطاقة قصيرة نسبيا . ففي حوالي ٩٠ إلى ١٢٠ سنة فإن انتاجهما سيقل نظرا لتضاؤل احتياطيانهما بينما سينتقل الفحم إلى المقدمة ليحتل مكان الصدارة . وقبل ان يصل الانسان إلى هذه المرحلة لابد ان يكون قد بدأ بحثا محموما وكثيفا عن مصادر بديلة للطاقة .

وبالطبع فإن تناقص انتاج النفط والغاز سيكون تدريجيا وستصبح الصناعة الكيميائية هي المستهلك الرئيس لهما وستحل بذلك محل صناعة الطاقة . وبالفعل فاليوم يذهب حوالي ٨٪ من الناتج الاجمالي للنفط إلى انتاج المواد البلاستيكية، والمطاط، والأسفلت ... الخ ، وتشير التوقعات إلى أن الصناعة الكيميائية سوف تستهلك بحلول عام ٢٠٠٠ ضعف كمية النفط التي تستهلكها الآن . ومن الواضح ان استعمال النفط لانتاج البلاستيك والألياف يشكل عملية رابحة وهي افضل بكثير من حرق هذا الفلز الثمين . لقد كانت الصناعة البتروكيميائية تتطور بمعدل سريع يلاحق تطور الطلب المتزايد على منتوجاتها ، وهذه العملية لا يمكن ان تعود إلى الوراء .

فالقيمة الغالية للمنتوجات البتروكيميائية ستبرر الاستثمارات الضخمة التي ستبذل من اجل استخراج النفط من مكامنه المجدية التي توشك على النضوب . وبالطبع فإن الكميات المتبقية من الفحوم الهيدروجينية ستكون قليلة . ومن أجل التوسع في انتاج النفط لابد من حفر آبار عميقة . ويمكن اعتبار هذه المرحلة بإنها مرحلة « الشيخوخة » للصناعة النفطية .

ويمكننا اليوم أن نعد صورة مجسمة لتاريخ استعمال الفحوم الهيدروجينية بما في ذلك مرحلتها الأخيرة ، فعلى مدى ستة آلاف سنة لم تكن استعمالات النفط والغاز محددة أو معروفة بشكل واضح « وهذه تشكل اكثر من ٩٠ بالمئة من الفترة بأسرها » .

اما فترة تشكل الصناعة النفطية وتطورها فقد امتدت حوالي ٩٠ - ١٠٠ سنة (١,٥ بالمئة) وتقدر فترة ازدهار هذه الصناعة بـ ١٠٠ - ١٢٠ سنة (حوالي ٢ بالمائة)، وستليها فترة الركود (الانحسار) وهذه ستكون طويلة وقد تمتد عدة قرون « ٥ - ٧ بالمئة من الفترة الزمنية الكلية التي استعمل فيها النفط » .

وعلى مدى قرون عديدة قادمة ستصبح عملية اكتشاف احواض نفطية جديدة اصعب كما ان الأحواض النفطية والقارية التي سيتم تطويرها سوف تدر ربحاً قليلاً .

ان النفط المستخرج في المناطق البحرية يقارب ٢٥٪ من النفط المستخرج في العالم ، إلا أن الاحصاءات تؤكد ان الانتاج في ٣٠ من ٦٢ دولة منتجة للنفط من قاع البحر يتناقص (وهذه لا تشمل الدول النفطية الغنية في الشرق الأوسط وعددها ١١ دولة لأن كمية النفط المنتجة هنا تخضع وبشكل رئيس لاعتبارات السوق وهي متعلقة بالاعتبارات السياسية) .

الاحتياطات الجديدة

لقد تم حتى الآن - اكتشاف ٤٠ إلى ٤٥ بالمئة من الثروة الباطنية الكامنة في اعماق الأرض، ومن الصعب اكتشاف حقول جديدة غنية بالنفط والغاز نظرا لأنه لم يتبق سوى مساحات قليلة من الأرض لم يتم استكشافها بعد . ويعتقد الاختصاصيون ان الاحتياطات الكلية للنفط تتراوح بين ٢٢٠ إلى ٤٠٠ مليار طن والكتلة الرئيسة للفحوم الهيدروجينية تقع في المنخفضات الضخمة من قشرة الأرض على عمق يزيد عن ٢ إلى ٤ كيلومترات ،

وهي مملوءة بالصخور الرسوبية المحتوية على طبقات غنية بالمادة العضوية ، والطبقات المسامية التي يمكن ان تحتوي على النفط والغاز مجزأة بطبقات تحمي المكامن الواقعة تحتها ، وتدعى هذه المنخفضات بالأحواض الرسوبية وهي تحتوي مكامن النفط والغاز المعزولة .

ولكن ماذا عن المناطق التي لم ينقب فيها عن النفط والغاز بشكل جديد مثل مناطق القطب الجنوبي والحواف الصخرية للبحار الشمالية وهذه مخبأة تحت الجليد الطافيء ولسوء الحظ فإن المعطيات الجيوفيزيائية المتوافرة تشير إلى أن من غير المحتمل اكتشاف مكامن نفطية غنية هناك كتلك التي تم اكتشافها في الشرق الأوسط أو في خليج المكسيك .

ان المكامن الجديدة قد تكون موجودة على اعماق كبيرة (تتجاوز ٤ - ٥ كم) من سطح الأرض ويجب ان لا ننسى ، ان كمية النفط تبدأ بالتناقص اعتبارا من العمق ٣ - ٥ كم .

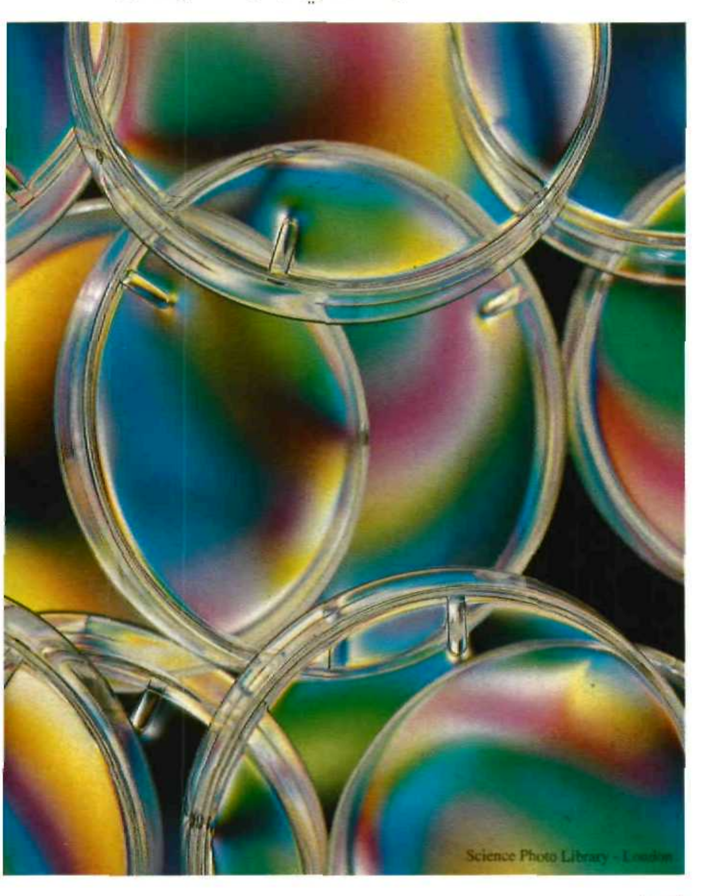
ومما لا شك فيه ان بعض مكامن النفط موجودة في مصائد غير عادية لا يعرف الجيولوجيون عن وجودها أي شيء . ويضاف إلى ذلك ان القشرة الأرضية يوجد فيها عدد كبير من المكامن الصغيرة التي اغفلت ابان عمليات المسح الجيوفيزيائي التي اجريت للبحث عن حقول النفط والغاز . وحسب معلوماتنا فقد تحتوي هذه الحقول الصغيرة على اكثر من ٢٠ بالمئة من الاحتياطات الكلية إلا أن تطويرها بقصد الاستفادة منها يستهلك كثيرا من الوقت والمال : فاستخراج طن واحد من النفط من مكامن تحتوي على اقل من مليون طن يكلف عشرة اضعاف أو أكثر من كلفة استخراج النفط من مكمن يحتوي ١٠ ملايين طن وبالتالي فإن مساهمة المكامن الصغيرة في الانتاج الاجمالي للنفط ستكون متواضعة ، ولكن ستحد من تناقص كمياته .

بعد الانتهاء من حقل نفطي يبقى فيه كمية من النفط في باطن الأرض تغطي جدران الفجوات أو يبقى محبوسا في مسامات مغلقة في الصخور وفي الطبقات غير المتصلة بالبئر . والسؤال الذي يطرح نفسه كيف نستخرج هذا النفط المتبقي ؟ والجواب عن هذا ما يزال احد موضوعات البحث المكثف . وقد أجريت تجارب عديدة لهذا الغاية منها تسخين حوض البئر بالبخار ، وحرق النفط مباشرة في حوضه ، وباستعمال المواد النشطة سطحيا ، وبالانفجار ... الخ ولم تثبت هذه الطرق جدواها ولكن ، لابد من وجود طريقة جديدة يمكن من خلالها استخراج ٥٠ بالمئة على الأقل من النفط المتبقي في باطن الأرض ، وهذه الطريقة ان امكن التوصل إليها ستضاعف على الفور كميات النفط المتوافرة .

وقد وجد الجيولوجيون الذين يتابعون باهتمام موضوع التزود بالطاقة ان هناك احتياطيات ضخمة من أنواع الوقود غير النفط والغاز . فاحتياطيات الفحم الحجري تزيد عن احتياطيات النفط والغاز بمقدار ١٠ إلى ١٥ مرة . وهناك كميات من النفط الحجري لا تقل عن كميات النفط ، كما ان احتياطيات الرمل البيتوميني تقدر بنصف احتياطيات النفط علما ان أكبر مكامن الفحم موجودة في الاتحاد السوفياتي (السابق) والولايات المتحدة الأمريكية والصين ، واحتياطيات النفط الحجري موجودة في الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل والصين والاتحاد السوفياتي ، واحتياطيات الرمل البيتوميني في كندا وفنزويلا .

وبغية الاستفادة من هذه الحقول لابد أولا من إيجاد الحلول لبعض المسائل ، فمثلا من اجل التوسع في استخراج الفحم الحجري من مناجمه لابد ان نبني المدن وأن نشق الطرقات في مناطق غير مأهولة ، أما معالجة الرمل البيتوميني فإنها عملية مكلفة جدا في الوقت الحاضر .

اما الغاز الطبيعي فهو الآخر يخلق

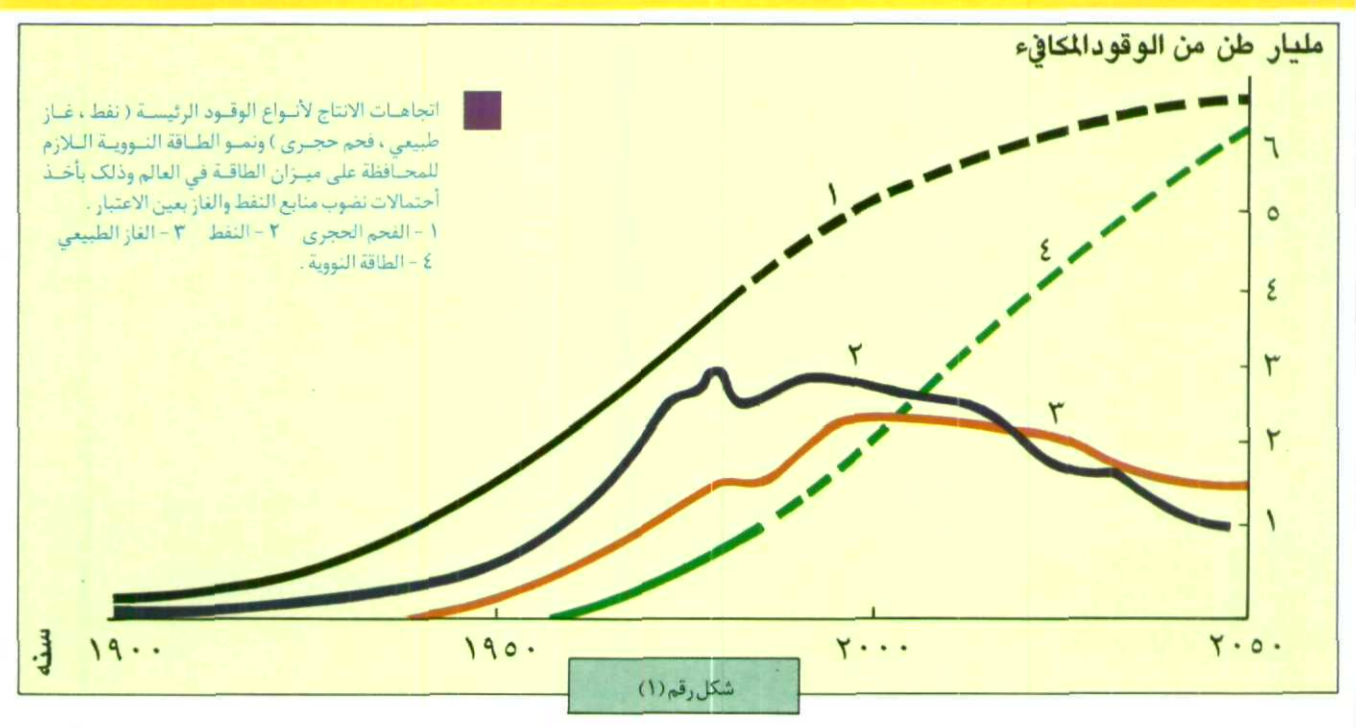


تداخل أضواء ملونه في مختبر لصناعة البلاستيك تم تصويرها وهي في حالة تمدد والالوان المتشابهة هنا كانت قد تعرضت لنفس النسبة من الضغط وهي طريقة يُستفاد منها هندسيا في مجال الصناعة.

صعوبات معينة ، والمسألة الرئيسة هنا متعلقة بالنقل . فيمكننا نقل الغاز بخطوط الأنابيب أو تسييله من أجل نقله إلا أن ذلك ما يزال مكلفا ، كما ان هنالك كميات كبيرة من الغاز تستهلك في محطات الضخ

مستقبل الانتاج

بعد فترة من الازدياد الثابت في انتاج



شكل رقم (١)

النفط تحل فترة من الهدوء تستمر وسطيا ستة اعوام (وهي تتراوح بين سنتين وعشر سنوات) . وقد تكون هذه الفترة اقصر إذا اتخذت الاجراءات المناسبة لتشجيع الانتاج ، وبشكل عام يلاحظ ان معدل الهبوط في الانتاج يساوي معدل التزايد الذي كان سائدا في مرحلة الصعود السابقة .

بعد ٤ إلى ٥ سنوات من الانحسار السريع في الانتاج تأتي في العادة فترة ثانية من الاستقرار ، أو سقوط حاد في معدل الانحسار ، وهذه الفترة تستمر وسطيا بين ١٠ إلى ٢٠ سنة (وهي تتراوح بين ٥ إلى ٣٠ سنة) بعد ذلك ينخفض منحنى الانتاج انخفاضا سريعا إلا إنه متدرج اكثر من الانحسار الأول ، ثم تأتي الفترة الثالثة من الاستقرار ، وهذه المرحلة لم يتوصل إليها حتى الآن سوى بعض الدول أو المناطق وبالتالي ، فليس لدينا معطيات دقيقة حول استمرارية هذه الفترة .

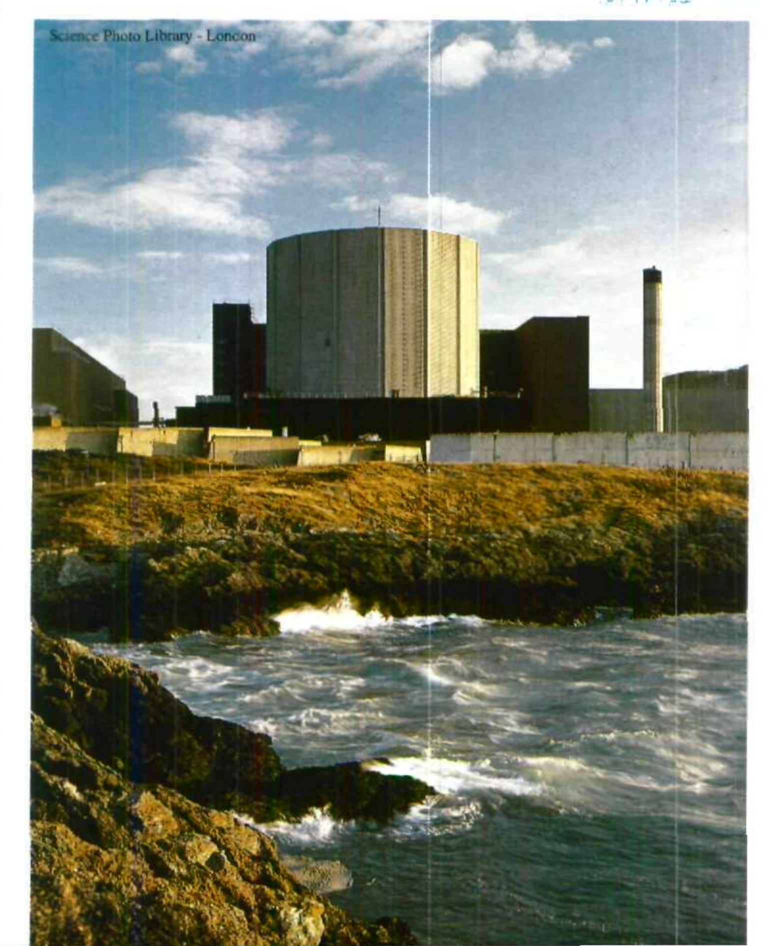
واستنادا إلى شكل الانتاج المبين يمكننا ان نحدد مسبقا انتاج الفحوم الهيدروجينية الطبيعية لكل قطر في المستقبل ، وبجمع النواتج السنوية لجميع الاقطار يمكننا ان نرسم تغيرات منحنى الانتاج السنوي المتوقع في العالم (الشكل ١) ، ولكنها لا تبين اية فترات استقرار واضحة نظرا لأنها تحدث في أوقات مختلفة في مناطق مختلفة في العالم ، ويمكن كذلك اعداد منحنيات مماثلة من اجل الفحم والغاز والطاقة النووية .

إن الذروة في انتاج النفط ستحدث في نهاية هذا القرن ، أو - وهو الأفضل بالنسبة لنا - خلال العقود الأولى من القرن الواحد والعشرين .

آنذاك ، سيتجاوز انتاج النفط ٣ مليارات طن في السنة وهو يمثل ١ بالمئة من المصادر الجيولوجية المقدرة، ولكن إذا كانت الاحتياطيات الكامنة قد قدرت بالنقصان (وهي حاليا مقدرة بـ ٣٠٠ مليار طن) فإن الانتاج سيكون اعلى بعض الشيء والانحسار العام في الانتاج سيتقدم بشكل أبطأ .

ومن الواضح ان انتاج الغاز يخضع للقانون ذاته نظرا لأن طرق استكشاف حقول الغاز الطبيعي

منظر خارجي لاحدى محطات توليد الطاقة النووية التي تحتوي على مفاعلين . وقد تم انشاؤها عام ١٩٧١م.





حفارة ميكانيكية استغرق تركيبها عامين بالقرب من منجم مفتوح للفحم، وتستطيع هذه الحفارة رفع ١١٠,٠٠٠ امتار مكعبة من الفحم في اليوم الواحد .

وتطويرها مماثلة لتلك المستعملة بالنسبة للنفط ، إلا أن حقول الغاز تتطور بشكل ابطأ نتيجة لمشكلة النقل بسبب الحاجة الأقل .

ولعل الانتاج العالمي من الغاز الطبيعي (٢,٥ تريليون متر مكعب في السنة) سيحدد في وقت مبكر من القرن القادم ، وحتى ذلك الوقت نكون قد استخرجنا ٢٥ - ٣٠ بالمئة من كميات الغاز الكامنة (وهذه تقدر بـ ٣٠٠ تريليون متر مكعب) .

مع ان كميات الفحم الحجري المستخرجة تتزايد باستمرار إلا أن معدل زيادة الانتاج أقل منه بالنسبة للنفط ، وهذا ناتج عن العطالة التي تلازم صناعة الفحم . فقبل ان نتمكن من ايصال الفحم الحجري إلى السطح من الضروري التنقيب عنه في المناجم المفتوحة أو في المناجم تحت الأرض وهذه تحتاج بعض الوقت .

والأختلاف الرئيس بين انتاج الفحم من جهة وانتاج النفط من جهة اخرى هو ان انتاج الفحم لن يكون محدودا ، على الأقل في المستقبل المنظور ، باحتياطياته المعروفة . ففي عام ١٩٨٠ تم استخراج حوالي ١١٤ مليار طن من احتياطياته الكلية وإذا تمت المحافظة على هذا المعدل في الانتاج حتى العام ٢٠٠٠ فإنه بحلول نهاية الألف الحالي نكون قد استخرجنا فقط ١,٣ بالمئة من احتياطياته المقدرة بـ ١٤,٣ تريليون طن، علما ان الانتاج السنوي من الفحم سيكون آنذاك حوالي ٦ مليارات طن .

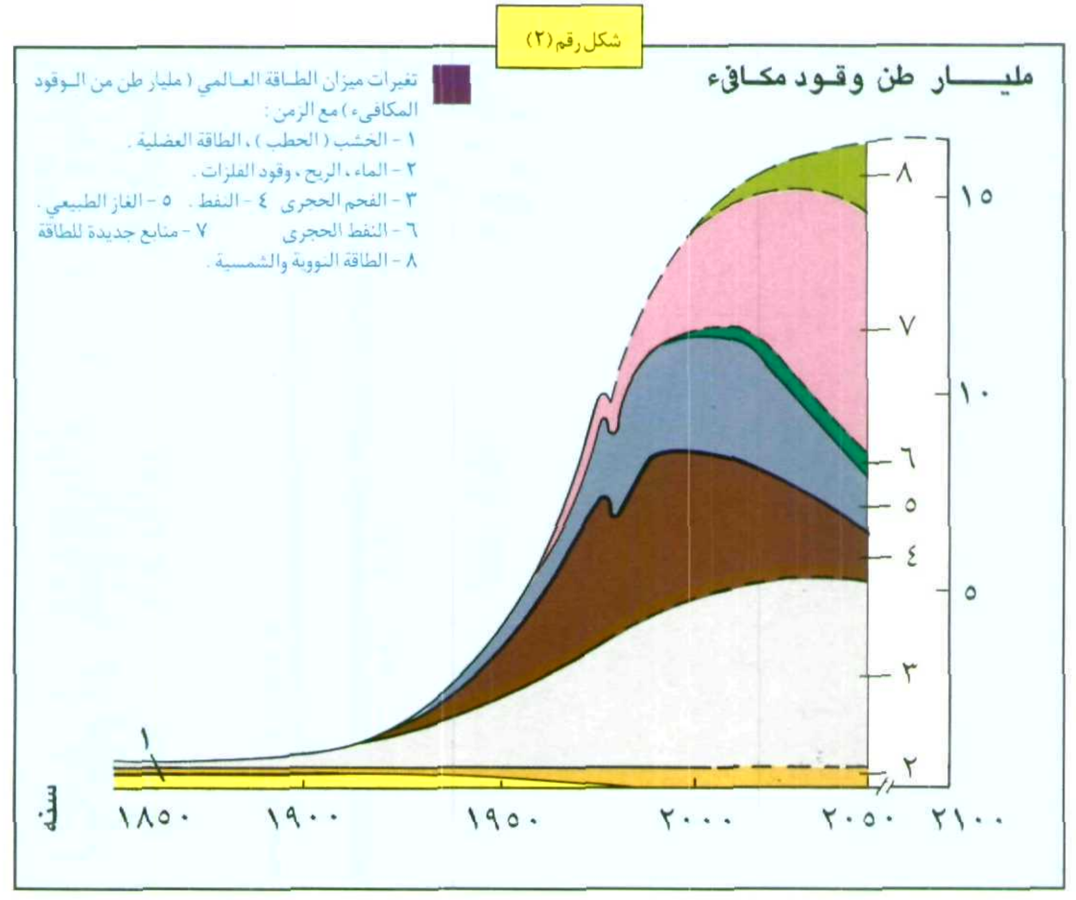
إلا أن تطوير معظم حقول الفحم يشكل عملية معقدة ، فمكامن الفحم الرئيسة (حوالي ٤٤ بالمئة من احتياطيات العالم) موجودة في مناطق سيبيريا وهذه ليس من السهل الوصول إليها . وبالتالي فإن تطوير مناجم للفحم هناك ليس اقتصاديا البته ، كما أن انشاء مناجم مفتوحة هائلة هناك سيخرب الوسط المحيط ويلوث البيئة . ويضاف إلى ما سبق ان حرق الفحم يولد كثيرا من الرماد والمركبات الكبريتية ، وأية توقعات مستقبلية متعلقة باستخراج الفحم يجب ان تحسب حسابا للقيود المفروضة على تلوث البيئة وللاعتبارات الاقتصادية . وبالتالي فإن التحديد المسبق لكميات الفحم التي يتوقع استخراجها في المستقبل امر صعب جدا . ومما لا شك فيه ان التقدم العلمي والتكنولوجي سيجعلان تطوير جميع حقول الفحم الحجري عملية رابحة اقتصاديا ، وفي هذه الحالة فإن استخراج الفحم الحجري سيستمر في الزيادة حتى منتصف القرن القادم .

يستخرج الزفت Bitumen عادة مع الصخور المحتوية عليه ثم يفصل عنها بالتسخين، مما يجعل العملية مكلفة جدا وتتطلب امكانات بشرية كبيرة، وحتى أغنى حقول الزفت في العالم، وهي موجودة في كندا وفنزويلا ، يصعب اعتبارها ريعية (رابحة)، ومن المؤكد ان الزفت سيصبح في المستقبل من العناصر المهمة المستعملة في كل من الصناعة الكيميائية وصناعة الطاقة . ولحسن الحظ فإن احتياطياته هائلة جدا : تقدر بحوالي ١٥٠ مليار طن .

نظرة إلى الأمام

انطلاقا من الاتجاهات الحالية نستنتج ان حصة النفط في القرن الواحد والعشرين ستستمر في الهبوط ، كما ان انتاج كل من النفط والغاز سيتابع تناقصه ، ومع ان الناتج الكلي من الفحم سيزداد إلا أن حصته ستقل كذلك . اما إذا ازدادت حصة النفط

شكل رقم (٢)



الحجري ، والـزفت التركيبي، فإن الـزيادة ستكون طفيفة جدا ، وبالطبع فإن مساهمة مختلف منــابع الطــاقــة ستعتمــد على الاستهـلاك وإذا اســــتقر عدد سكـان العالـــم (ويعتقــد أن ذلك سيحصل في عـام ٢٠٣٠) تقريبـا ، فإن نمو استهـلاك الطاقة سيتباطأ بشكل كبير .

وبـدون أدنى شك ستكــون الطــاقــة النـووية ذات اهميـة كبيرة في المستقبل ، ويحتمل ايضا ان تلعب الطاقة الشمسية دورا رائدا ، وبالاضافة إلى ذلك ، فقد نجد منابع جـديدة للطـاقة متـوفرة بكثـرة ، وبكلمات اخـرى فليس هنـاك حتى الآن ما يـدعـو للتشاؤم عمليا، فطاقة باطن الأرض الحرارية غير قـابلـة للنفاذ ، ولـلاستفـادة من هـذا المصدر من الطاقة نحتاج إلى وسيط لنقل الحرارة والماء ، مثـلا . لأن الصخـــور ذات قـابلية منخفضــة لنقل الحرارة ، هـذا من جـانب ، ومن جـانب آخـر لابـد ان تكـون المساحـة التي يتم فيها التماس بين الماء والصخـور كبيرة بما فيه الكفـاية ، كـذلك يجب تدوير الوسيط الناقل للحرارة (الماء) ، والطبقـة السـاخنـة المسـاميـة في اسفل الأحواض الرسوبية تحقق هذه المتطلبات ، وبالطبع يمكــن استعمالها لهذا الغرض في المناطق التي لا يوجد فيها النفط .

ومن المتوقع في منتصف القرن القادم ان تغطي الطاقة النوويـة والطاقة الشمسية وطـاقة بـاطن الأرض الحراريـــة حـوالي نصف الطاقـة التي سيـــستعملها الانسان (الشكل ٢) .

علما ان الطـاقـة المقــدمـة من هـذه المصـادر الثـلاثة ستكـون اكبر من كميـة الطاقة الاجماليـة التي يتم الحصول عليها من النفط والغـــاز الطبيعي خــلال ذروة سنوات انتاجها .

ولابـد لنـا هنـا من كلمـة اخيرة .. ان تـوقعـات العلماء التي تبدو خيـاليـة الآن ستصبح حقيقة في القرن الواحد والعشرين واليوم يقوم الفيزيائيون والجيـولـــوجيـــون والمهنـدسون ، بـوضع الأســـاس لمستقبل مكتف بالطاقـة لصالح جميع الناس ■

المراجــع

١ - د. مظفر شعبـان . حمى النفط تبعث من جديد ، «الخفجي»، ايلـــول (سبتمبر) ١٩٨٩م .

٢ - م. صفـــوان ريحاوي ، قصة النفط : البـدايات والشجـــون . مجلـــة القافلة ، مارس / ابريل ١٩٩٢ .

٣ - محمد مصطفى الـدنيا . الغاز والخليج والطاقة ، مجلة الكـويت ، العدد ١٠١ ، ١٥ ايار (مـايو) ١٩٩٣م .

٤ - د. احمد النائمي . لو نفذ البترول . هل نشعل الماء ؟ العـربي رقم ٤٠٣ حزيران (يونيو) ١٩٩٢ .

٥ - مجمـوعـة مـن الخبراء . الطـاقـة بين الحاضر والمستقبل (رحلـة في كتـاب) الفيصل ، رقم ١٤٨ حزيران (يونيو) ١٩٨٩ .

٦ - استراتيجيات استخدام الطاقة ، مجلة العلوم آذار / ١٩٩٠ .

٧ - م. رشـاد ابـوراس الطلب على الطـاقـة خـلال التسعينات . مجلة اخبـار النفط والصناعة رقم ٢٤٠ تموز (يوليو) ١٩٩٠ .

٨ - الطـاقـة بين العلم والانسـان والتـاريخ / مجلـة المهندس العربي رقم ٩٨ / ١٩٩٠ .

٩ - محمد مصباح حمدان ، الغـاز : مشعل الحضارة القادم ، مجلة اخبار النفط والصناعة رقم ٢٥٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ .

١٠ - الغاز الطبيعي ، مجلـة العلوم ، آب (اغسطس) ١٩٩٢ .

11. The Quest for Oil, N.G. M. Aug. 1989.

12. Greenhouse effect .. Are there grounds for alarm ? Sputnik ., No. 8/1990

13. W. Hafele. Development of power Industry Science in the U.S.S.R. No. 2/1991. April 1991.

14. B. Schmidbauer. Implementing Strategies for reduced W, Energy Consumption, Siemens Review Fall 1991. Siemens Aktiengesellschaft, Berlin.

"الأسئلة"

شعر: فاروق شوشة - مصر

إنها ساعة ويحط الرحيلْ
فيا وجع القلب ، كن لي علامة موتي
وشاهد وقتي
وخارطة بدؤها في دمي
ونهاياتها في المدى المستحيلْ
إلى أين تمضي ؟
وكل البلاد سهام مصوبةٌ
والفضاءات فاغرةٌ
والهواء المدمى ثقيل
كانت الأرض متكأً
والسماء جداراً
وهذي المياه المحيطة تنهل شعراً
ولؤلؤةً ،
ونجوما تميل مع الليل حيث يميلْ
ان قافلتي بالعراء
ووجهي للشمس منشعب ،
والمدائن شاخصة كالقبور ،
وفي حبة القلب ذاكرة للدمار ،
ونار مدومة ،
وسحابة زيت ،
وطير على شاطىء البحر مختنق ،
وزمان ذليل !

* * *

هذه الأسئلة !
مطر أسود ،
مطر كالرصاص
فيا وجع القلب ، لست الطريق الذي أبتغيه
ولست الجواب العصيّ
ولا أنت منقذ رأسي من المقصلة !
إن هذا الفضاء الذي كان متسعا قد تراجع
والأفق المستدير تناثر ،
واللحظة الفاصلة
شطرت هامة العاكفين
على الساحة المرسلة
انهم يحلمون بأن غدا قادم
وشراعا يلوّح عند المضيق
ووجها تضيء بشارته للحيارى
وصوتا جديدا يطل ،
فتخرسه الطلقة القاتلة !

* * *

يا صحابي الذين اعود إليهم غريبا
أداورهم عن مداري
واحمل وجها كئيباً
وعينين في الرعب عاكفتين
على جثث في العراء ،
وعاصفة في الدماء ،
وفاجعة تشبه المهزلة
إنها الأسئلة
حين تفلت منا لماذا ؟
وتفلت بعد لماذا .. متى ؟ ثم أين ؟
وتهتز في بؤبؤ العين
سارية فوقها علم يتفكك
تهوي نجيماته في قرار الخليج
ما الذي سوف نحكيه بعد ليالي النشيج ؟
حين تسألنا أعين للصغار
توقف فيها الزمان المخيف
ما الذي نحن فيه ؟
ما الذي نرتجيه ؟
حين تنهمر الأسئلة
حين تفجؤنا ساعة الزلزلة !

اللحظة الشعرية عند «ريلكة»

بقلم: أ. د. عبدالسلام المسدي - تونس

من الادباء مبدعون لا يخطر لهم يوما مـن أيام حياتهم أن يفوهوا بقول نقدي أو ينبسوا بكلمة تنخرط - غضبا أو استلطافا - في خطاب النقاد، وانت مع هؤلاء القائلين للشعر أو النـاسجين لخيوط القصة والمسرح والروايـة في حل من أمرك أتأخذ صمتهم سكوتا بالارادة أو انحجابا على السجية.

ومن الادباء مبدعون يقولون الادب، ويقولون النقد، ويطلبون إليک أن توازي بينهم وبين النقـاد ساعـة ينقـدون، وان تسبل عليهم ستائر الأدب - بحكمتـه وجنونه - حين ينطقهم الخيال أو يستنفرهم المجاز.

وآخرون يحترفون الأدب ولا يصطنعـون النقد فتجيئهم لحظة يقـولون فيـها قولا نقديا لا ينكرونه بعد أن قالوه، ولا يصرون على معاودة القول فيه كرة اخرى، فـاذا الـذي افـاضوا فيـه كأنما هـو من الحولي المجـوّد، أو كأنما هـو من حكمـة الصانعين ولكن الناس قلما يهتمون بذلک القول ساعة يقال، إذ تراهم ينصرفون عنـه إلى قول المحنكين في النقـد والمتمـرسين بـادواته في اللفظ، وآلاتـه في الحركـة والتأثير، والى قـول الذين خبروا صنـاعـة الكـلام يقلبون امـره تقليبـا فيضعون بعضه حيثما ينبغي وضعه، ويحّرفون بعضه الآخر عن مواضعه.

ثم تتبـدل شؤون النـاس، وتتقلب أوضاع الادب عنـدهم، وتحول أحوال على النقد واساليبه، فيلتفتون عنـدئذ الى ما كانوا قد انصرفوا عنه، فاذا له عليهم وقع كأنه المس الجديد، فيقول بعض هؤلاء ماكرا: ذنبهم انهم جاءوا قبل أوانهم، واثمهم انهم فاهوا بكلام ليس من كلام أهل زمـانهم. ويقول بعضهم الآخر راحما في غير مـنّ ولطيفا في غير اشفاق: انهم اصحاب فكر ثاقب في العلم والادب والنقد.

ومن هؤلاء شاعر إذا اتفق أن قرأه القارىء - في لغته أو مترجما - وقرأ خاصة بعض ما خطـه في غير الشعر على قلته أيقن انه حقيق بأن يعـد من ذوي الارهاصـات التي جعلتهم يستشعرون من روائع النقـد الحديث ما ألهمهم بعضا من انفاسه قبل أوانها.

هذا الشـاعر هو رينـارماريـا ريلكه، ولد في بـراغ سنة ١٨٧٥م، وتلقى تربية عسكـرية بين النمسا وموراڤيا وبدأ النـاس يقرؤون شعره منشورا سنـة ١٨٩٠ ثم التحق بجامعة براغ، فـدرس الادب والتاريخ والفلسفة وتاريخ الفنون، وبعد أن انتقـل إلى جامعة ميونيخ طوّف بين ايطاليـا وروسيا فـالتقى في شهر ابـريل ١٨٩٩ بتولستـوي ثم عاود السفر إليـه، ثم زار باريس وكـرن ثم تجول بين اسكندينافيـا والمانيا واتى إلى المغرب العـربي والى مصر سائحا مستطلعـا، ثم ظل يتجول في اصقاع الارض إلى أن مات آخر سنة ١٩٢٦.

لقد ترک هذا الأديب انتاجا غـزيرا، وكانت الالمانية لغته، وترجم جل ادبه الى اللغة الفرنسيـة واتفق في يوم من أيام ١٩٠٢م أن كتب إليه شـاب بدأ يقرض الشعـر يستفتيه فيما يكتب من الشعـر وهو بين جدران الاكاديمية العسكرية التي سبق لاديبنا أن اختلف اليها، فكتب يرد، وتـوثقت الصلة، وامتـد التراسل بينهما طيلة سنـوات من العقد الاول من هذا القرن. وعنّ لصاحب المبادرة فرانز كابيوس ان يخرجها الى الناس بعد وفاة الشاعر بثلاث سنوات، فخرجت، ثم ترجمت الى لغات كثيرة من بينهـا الفرنسية، واشتهـرت بين رواد الادب العالمي بالعنوان الذي اخرجت فيه الرسائل: «رسائل إلى شاعر ناشيء».

والناظر فيهـا يجد لها رونقا، ومعها لذة، لما حـوته من تأملات في الادب والفن وقـول الشعـر، ولما اشتملت عليـه من تصويـر لطبيعـة العلاقة التي تقوم بين الاديب وادبه في اللحظة التي يهم فيها بالقول الابداعي، وهي لحظـة الكتابـة. ولم يصطنع صاحبنـا في هذا الشأن الخطير مسالک الالتـواء، فلم يركن الى المداراة، ولم يتـوسل بحيل الاستدراج، فـالامر محسـوم لديـه إذ الكتابـة لا تنبثق الا من ضرورة الاحساس بالحاجة الى الكتابـة، فهي اقتضاء يحكم به الشعور الذاتي لدى الأديب، اما مقياس اليقين من حصول هذه الحاجة لدى الكاتب فينجلي ساعة يصرف نظـره عن الكون الخارجي من حوله ثـم يدفعه دفعا إلى عالمه الداخلي.

يقـول ريلكه مخاطبـا الشاعـر المبتدىء الـذي جاء يستنصحـه ويستفتيه:

«لتلق بنفسک في عـالمک الـذاتي، ولتبحث عن السبب الـذي يحملک على الكتابة، وتأكد إن كان هو من الأسباب المتصلة باقصى الأعماق التي في روحک، وتساءل بينک وبين نفسک في غير مخادعة إن كنت مستعدا للتخلي عـن الحياة إذا حيل بينک وبين الكتـابة، ثم اسأل نفسک في اكثر ساعات الليل هدوءا: هل محكوم عليّ ان اكتب،

وابحث في اعماق النفس عن جواب، فان أجابتك «ليس لک من ذلک مهرب» فاجعل حياتک تشييدا لهذا القدر المحتوم».

ويخلص شاعرنا بعد طول إسهاب الى استصفاء تعريف للادب ينفذ الى جواهر المكنون فيه قـائلا: «إن الاثر الفني الصالح هو الذي ينبع من الاقتضاء. ففي الاسباب الداعية إليه تكمن قيمته، وليس عليها أي وصي آخر».

ولا ينفک هـذا الاديب - ريلکه - يلح على ارتبـاط لحظة الابـداع بلحظـة الاحساس بحتميـة الافضاء بـه حتى يتخذ من هـذا الاقتران معيارا ضابطا لانتاج الادب:

«يكفي ان يأخـذک الاطمئنـان بـان في وسعک الحيـاة دون ان تكتب حتى تكـون لـديک كـل المبررات كي لا تكتب شيئـا على الاطلاق».

أما أهم مصدر تزدهر به التجربة الابداعية حسب رأي صاحبنا فهو تأمل الـذات في ضرب من الاستبطان تخرج بـه العملية من الانطـواء السلبي وتفارق فيـه معالم الانكفاء الحارق مما شاع ردحـا من الزمن عند دعاة التيار الرومنطيقي القـائلين باستنباط اللذة من مورد الالم واستلهام القريحة تحت وقع المرارة.

فتأمل الـذات هـو بحث عما يـوقظ الفكـر عندمـا تنقـدح شرارة التجربة الشعـورية، وهو مسرب تفتحه النفس بين شقـائق احاسيسها تتحـول معه التجـربه إلى وعي متـدفق خصب، ومن اجل ذلک نصح رينار ريلکه صديقه فرانز كابيوس قائلا: «اعمل على اغناء مواهبک في سكينة واتئاد، واقتف نسق نموک، فليس ادعى الى اضطراب مواهبک من انصرافک الى الكون الخارجي باحثا فيـه عن اجوبة تشفي غليلک في القضـايـا التي لا يجيبک عنهـا إلا وجـدانـک الحميم في اشـد الساعات صمتا».

ومن هنـا كـان هـذا الاديب في رسـائلـه الى صديقـه الشـاعـر المبتدىء يحث على حب الأسئلة في ذاتها ولذاتها دونما حرص شديد على تعيين اجوبتها الباتة لان كل اجوبة القضايا الخطيرة لا معنى لها ولا جدوى منها الا متى تسنى للمرء ان يحياها حياة الامتلاء، ومن هنا كان ريلكـه يدعـو في احدى رسـائله *الى الارتبـاط بالطبيعـة*، والى الالتصـاق بكل ما تـوحي بـه، لا من حيث هي سهول وجبـال وانهار وبحـار، ولا من حيـث هي اخضرار فـاتن، أو امتـداد واسع، أو ثلـوج وبيـاض؛ وانما من حيث هي وجـود إذا تعلق الانسان بـأصغر اجـزائه وامعن النظر في ابسط عناصره تساءل عن عظيم الاسرار وعن كبريات المغازي.

«عليک ان تعبر عما تـرى كما لو كنت أول المخلـوقات تـراه، ثم تحدث بما تجد في نفسک وانت تـراه وقـل ان كنت احسست فيـه بالحب ام الضيـاع (....) وعليک باجتنـاب ما عم من اغـراض الشعر، وانصرف الى ما تقـدمه الحيـاة اليوميـة اليک، وصف ما يأخـذک من احاسيس اللذة ومشاعر الاسى، واكشف عما يفاتح ذهنک من الخواطر وما يـراوده من ميل إلى الجمال ايا كـان مصدره. ثم عليک ان تصف كل ذلک وانت في وفـائک العميق، وصـدقک الصـامت، وتـواضعک الخاص».

فكل شيء - عند صاحبنا - مصدر للتأمـل وموطىء قدم للابداع، لذلک تراه يحذر الذين ابتلاهم الادب أو ادركتهم محنة الشعر من أن يحكمـوا بحكمهم القاسي على الحيـاة اليوميـة اذا بدت لهم ضنينـة الإلهام، فليس الفقـر فقرها، وانما هـو فقرهم: ليس لهم من مـواهب الأدبـاء ما ينفـذون به الى مكـامن الاشياء حيث المخـابيء الثريـة، والكنوز المغمورة. فالاديب الحق لا يعرف لـلاشياء فقرا. فقريحته من الكون، وكل الكون قريحته: اذا سـألها اجابه الكون عنها، واذا استلهم الكون اجابته هي بما سأل.

لهذا كله اعتبر صـاحبنا ان الابـداع في الادب وضع ينفي القيود لانه موعود للبقـاء، واننا عند لحظة الكتابة نزداد بـالوجود تعلقا، وفي انفسنا تـوازنا، لـذلک كان ينصـح من استنصحه قـائلا له في بـلاغة واكتناز:

«عليک أن تكتب ساعة تهم بالاشياء كأنک تتهالک فيها».

ولو بحثنا عما يؤسس هذه الـرؤية الادبية المتصلة بلحظة الابداع لعثرنـا بين سطور الـرسائل التي خطها ريلكـه الى الشاعـر الناشيء كابيوس على ما يفسرها ايما تفسير، ذلک ان صاحبنا يعتبر ان الادب ملتحم بـالـوجود في كل تجليـاتـه - من العـالم الذاتي الى الكـون الخارجي - وان كل مـا في الوجود محكـم النظام وان خفي تـرتيبه، لـذلک فـان الادب الـذي هو مـرآة الـوجـود لا يمكن ان يقـام على الفوضى. فحتى لـو انكفأ الادب على الذات وراح ينبش في حفـريات الذاكرة الفردية فان كل ما في النفس مرتّب على قدر ترتيب الحوادث الواقعات معنا، أو قبلنا، أو ما هو منها قريب وأت.

«فأصغر الاشيـاء كأيسر الاحداث لا يخرج عن نظام الكـون كطراز من النسج ربطت اليافه يد محكمة الصنعة، بالغة الرقة».

وقـد انتهى التصـوير بصـاحبنـا الى ان يصوغ قـولـه في منتهى السبک وهو يقدم النصح لـرفيقه الشاعر: «لا تنخدعن بظـواهر الامور فكل شيء في اعماقها حكمة».

ولكن الرجع الـذي يأتينا من هـذا الاديب الذي امتـلأت تجربته الشعـرية - وحـركـة النقـد ايامـه لم تكن تخرج عن تيـارات المنهج التاريخي بكل اثقـاله - هو ان حـديثه عن التجـربة الشعريـة للحظة الإبداع قد يسر له الكشف عن علاقة الادب بالنقد كما بدت له.

واول ما يذهب إليـه هو ان الدخول الى الأثر عن طريق مـا حاكه النقاد حـوله يفسـد امر الادب. والسبب في ذلک انـه يولـد بنوع من الضرورة شيئا من سوء الفهم يتحـول الى شيء من سوء التواصل بين الادب وقاريء الادب.

فالتجـربة التي يصفها الشـاعر ويحاول ان يصورهـا بأدوات اللغة تظل حاملـة بكثير من الاشياء التي لا يـدركها اللفظ ولا تتـآزر عليها صياغات الكلام، فأقوم المسالک اليهـا لا يكون نقد الناقد وانما يكون بالانخراط فيها، و «التواطؤ» معها وتقاسم ما امتزج بها وتوالج عليها:

«ان ابعد الاشياء عمقـا واعظمها خطرا تجعلنا حيـالها في عزلة لا توصف» ولذلـک لا يفتأ رينار ماريا ريلكه يحذّر مـن لعبة اللفظ وخداع اللغة عنـدما يتأسس عليهـا خطاب النقـد فيحولنـا عن وجهة الأدب وينسينا جواهره.

ولئن كـان هـذا منتهى الادلـة على تشبع صاحبنـا بهذا القـول والتزامه بكل مراميه فان الحجة الاقوى هي انه كتب ما كتب ولم يكن في نيتـه اذاعة مـا كتبه بين النـاس، ولم يكن في حسـابه ان يأخـذ صديقه فرانز كابيوس رسـائله فينشرها بين الناس بعد موته، ولم يكن يدبر لامـر ترجمتها من الالمانية الى الفـرنسية، ولا كان يخطط بعض الناس ليحدّث القاريء العربي عنها بعد تسعين سنة من كتابتها.

أفلا يكون كتّـاب امثال تزفيتان تودوروف، وورولان بـارت، وجوليا كريستيفا، قـد قرؤوا رسائل ريلكه الى كابيـوس ففهموا ان الادب هو الذي يتخـذ من الاشياء علامـات، ومن الوقـائع رموزا، ومن الحوادث سمات. وان جوهر الكتابة هو الحديث الى الناس عما لا يتوقعون انک تحدثهم عنه، وان هذا الجوهر يعظم كلما كان حديثک عن الاشياء الى الناس بأيسر ما يمكن ان يكون ■

خصائص ثقافتنا

بقلم : أ. د. يوسف القرضاوي - قطر

لابد - لكي نفهم ثقافتنا بحق - ان نعرف خصائصها العامة ، التي ميزتها عن غيرها من الثقافات وهذا يحتاج إلى بحث مفرد ، ولكننا نشير هنا إلى أهم تلك الخصائص تبصرة وتذكرة .

خصائص هذه الثقافة

الربانيــة : هي ثقافة معجونة بـالجانب الالهي ، قد امتزجت فكرة الإيمان عامة ، والتوحيد خاصة ، بجـوانبها كلها ، وجرت فيها مجرى الدم في الشعيرات ، في شعـرها ونثرها ، في أدبها وعلمهـا وفلسفتها ، في كتب اللغة وكتب الدين ، وكتب العلم على اختـلافها . فيما تزين به المساجد ، وفيما تجمل به المنازل.

قد يوجد فيهـا بعض الملاحدة أو المشككين ، ولكنهم يمثلون الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها . ومع هـذا تجد نضح هذه الثقافة الربانية عليهم ، أحبوا أو كرهوا .

الاخلاقيــة : وللعنصر الاخلاقي فيها مكان رحيب ، وأثر عميق ، بـرز ذلك العنصر حتى في الجاهلية ذاتها ، كما نلمسه في شعر حاتم الطائي ، وعروة بن الورد ، وعنترة العبسي ، وغيرهم .

ثم جاء الاسـلام ، فعمق هذا العنصر إيما تعميق ، ووسعـه أبلغ توسعـة ، وربط الأخلاق بأهـداف ارحب وارقى ، وحوافـز انبل وازكى ، ووصلها بفكرة الالزام والجزاء ، جزاء الدنيا وجزاء الآخرة ، وحررها من غلـو الجاهلية وغلوائها ، ورفع الاخلاق مكانا عليا حين جعلها غاية الرسالة (إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق) وندد بالعلم الذي لا يثمر خلقا ولا سلوكا حسنا .

وفصل آدابا للمعلم والمتعلم ، والقاريء والسامع ، والباحث والمناظر ، بل آدابا لكل شيء في الحياة ، من أدب المائدة إلى بناء الدولة .

واعتبرت الاخلاق ثمرة الاعتقاد الصحيح والتعبد الخالص ، وإلا كان فساد الخلق دليل فساد الايمان ، أو فساد العبادة .

ولا تعترف هذه الثقـافة بتجـزئة الأخلاق : أخلاق لمعـاملة المسلمين ، وأخـرى لغير المسلمين ، فالخير خير للجميع ، والشر شر على الجميع ، والحلال حلال للكل ، والحرام حرام على الكل . لا كما جاء في توراة اليهود .

كما لا تعترف هذه الثقافة بذلك المبدأ الخطر الشرير : ان الغاية تبرر الوسيلة ، بل هي لا تؤمن إلا بالوسيلة النظيفة للغاية الشريفة ، ولا تصل إلى الحق بالخوض في الباطل . فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا .

ومن ثم لا انفصال في ثقافـة الاسلام ، بين الاخلاق والعلم ، ولا بين الاخلاق والاقتصاد ، ولا بين الاخلاق والسيـاسة ، ولا بين الاخلاق والحرب .

الانسانية : ومن خصائص هذه الثقافة : الانسـانية ، فلحمتها وسداها : احترام الانسان ورعاية كـرامة الانسان ، وحقوق الانسان ، فهي تقوم على اعتبار ان الانسان «مخلوق مكرم» من ربه « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ » (الأسراء ٧٠) . وأن الله جعله في الأرض خليفة ، وإنه تعالى سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه .

وهي تقوم على تكريم الانسان من حيث هو انسان ، بغض النظر عن جنسه أو لونه ، أو لغته أو موطنه ، أو طبقته ، بل عن دينه نفسه ، فهو مكرم بإنسانيتـه قبل ديانته ، ومن المواقف الـرائعة ما رواه البخاري عن النبي صلى الله عليـه وسلم انه قد مرت عليه جنـازة ميت وهو جالس ، فقام لها واقفا ، فقيل له : إنها جنازة يهودي ؟ فقال : « أليست نفسا » ، بلى ولكل نفس في الاسلام حرمة ومكان .

العالمية : وما دامت ثقـافة لكل انسان ، فلا غـرو أن تكون ثقافـة عالمية المنزع ، والـوجهة ، وقد عملت على تقـريب الفوارق بين بني الانسان ، تلك التي فرقت البشر قديما وحديثا ، ولهذا اشترك فيها عـرب وعجم ، بيض وسود ، اغنياء وفقراء ، ولاة وسـوقة ، مسلمون ونصارى ويهود ومجوس ، ولا تنافي بين انتماء هذه الثقافة إلى العروبة والاسلام من نـاحية ، ووصفها بالعالمية من ناحية اخرى ، فهي - كما قلنا - عـالمية النزعة والـوجهة ، مفتوحة لكل الجماعـات البشرية ، غير مغلقة على نفسهـا ، ولا متعصبة ضد غيرها ، مثل الثقـافة اليهودية المنغلقة ، التي تقوم على تمجيـد جنس خاص ، وشعب معين ، حتى وصفت الله سبحانه بأنه (رب اسرائيل) واعتبرت الشعب الاسرائيلي - كجنس - شعب الله المختار .

اما ثقافتنا فهي وان كتبت بالعـربية ، وانطلقت من الاسلام ، فالاسلام نفسه عالمي الرسالـة من أول يوم ، جاء يقول « يأيها الناس » لا « يأيها العرب » ويدعـو إلى الله « رب العالمين » لا رب المسلمين ولا رب العـرب وحـدهم ، ويعلن ان دعوتـه عامـة لا خاصـــة « وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ » (سورة الأنبياء ١٠٧) .

التسامح : من دلائل هذه العالمية وجود خاصية التسامح فيها ، برغم ظهور العنصر الديني فيها وغلبته عليها ، ولكن الدين الذي قامت

عليه ، يؤكد الإيمان بحقيقتين اساسيتين على غاية من الأهمية ، لتأثيرهما في فكر الانسان وسلوكه ، وعلاقاته مع الآخرين المخالفين ، وهما :

الأولى : ان اختلاف البشر في الأديان وغيرها واقع بمشيئة الله تعالى المرتبطة بحكمته ، ولا يملك احد أن يرد مشيئة الله ويغير سننه في الكون ، يقول تعالى « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ » (سورة هود ١١٨-١١٩) .

الثانية : ان حسابهم على ما ضلوا منه أو انحرفوا ، إنما هو إلى الله يوم القيامة ، وليس إلى الناس اليوم . وفي هذا يقول الله لرسوله في شأن المخالفين « فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » (سورة الشورى ١٥) .

ولهذا وسعت هذه الثقافة وهذه الحضارة غير المسلمين ، وفسحت لهم مكانا في مجتمعاتها ، واعطتهم ذمة الله وذمة رسوله ، وذمة جماعة المسلمين ، على أن يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، إلا ما اقتضاه اختلاف الديانة ، وبقي هؤلاء على عقائدهم وعباداتهم وشعائرهم ، وبقيت لهم معابدهم ومؤسساتهم ، ولم يجبروا على شيء يمنعهم دينهم منه ، بل لم يجبروا على ترك ما يبيحه دينهم لهم كالخمر والخنزير بل شاركوا في بناء الحضارة الاسلامية ، وكان لهم في احيان كثيرة مناصب وزارية وادارية ومالية ، على خلاف ما تعانيه الأقليات والجاليات المسلمة في كثير من المجتمعات الغربية اليوم ، التي أقامت الدنيا واقعدتها من اجل فتح كلية أوروبية خاصة للدراسات الاسلامية ، لتخريج أئمة ووعاظ للجاليات الاسلامية الكبيرة في داخل اوروبا ، شرقها وغربها .

التنوع : من خصائص هذه الثقافة (*التنوع*) . فهي *ليست مجرد ثقافة دينية (لاهوتية) كما يتصور بعض الناس . إنها ثقافة* واسعة متنوعة ، فيها الدين بفروعه المتعددة ، واللغة والأدب والفلسفة ، والعلوم الطبيعية والرياضية ، والعلوم الانسانية ، والفنون المختلفة ، فيها فقه ابي حنيفة ، واصول الشافعي ، وتفسير الطبري ، ورواية البخاري ، وادب الجاحظ ، ومعجم الخليل ، ونحو سيبويه ، وبلاغة عبدالقاهر ، وطب ابن سينا ، وشعر المتنبي ، ومقامات الحريري، وبصريات ابن الهيثم ، ورياضيات البيروني ، وتصوف الغزالي ، وفلسفة ابن رشد ، وعلم اجتماع ابن خلدون ، وخط ابن مقلة ، وألحان الموصلي .

فيها ابن طفيل من الأندلس ، وابن ابي زيد من تونس ، وابن حجر من مصر ، وابن الوزير من اليمن ، والشيرازي من ايران ، والزمخشري من خوارزم ، والدهلوي من الهند ، وجلال الدين الرومي من تركية .

فيها (نهج البلاغة) و (ألف ليلة وليلة) . فيها زهديات ابي العتاهية ، فيها مرثيات الخنساء ، وغزل ابن ابي ربيعة ، فيها فلسفة ابن تيمية ، فيها ظاهرية ابن حزم ، ومقاصدية الشاطبي ، فيها عقلانية الفلاسفة ، والتزام الفقهاء . فيها اجتهاد المجددين ، وتزمت المقلدين . فيها الفرق المختلفة من اهل الملة ، والفرق المنشقة عن الملة .

فيها الكتب المقروءة التي امتلأت بها المكتبات ، والزخارف المشهودة التي ازدانت بها الجوامع والمدارس والقصور (الأموي في دمشق ، الحمراء في الأندلس ، الأزهر في مصر ، السلطان احمد في استانبول ، تاج محل في الهند) .

انه التنوع الشامل أو الشمول المتنوع .

الوسطية : يكمل خاصية (*التنوع*) خاصية اخرى هي (*الوسطية*) أو (*التوازن*) . فهذه *الثقافة تمثل المنهج الوسط ، للأمة الوسط* ، بين افراط الأمم المختلفة وتفريطها . ومع أن الطرفين قد يوجدان داخلها ، إلا أن الصبغة العامة لها ، والطابع الغالب عليها هي الوسطية ، التوازنية ، المستمدة من وسطية الاسلام ، ووسطية أمته « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » (سورة البقرة ١٤٣) .

تجد هذا واضحا في الوسطية المتوازنة : بين العقل والوحي ، بين العلم والايمان ، بين المادة والروح ، بين الحقوق والواجبات، بين الفردية والجماعية ، بين الالهام والالتزام ، بين النص والاجتهاد ، بين المثال والواقع ، بين استلهام الماضي والتطلع إلى المستقبل .

التكامل : ومن خصائص هذه الثقافة ايضا : التكامل ، فيما بين بعضها بعض ، فالثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية ، وهذه تغذي الثقافة الانسانية ، وكل هذه تستفيد من الثقافة العلمية .

ومثل ذلك تكاملها مع الثقافات الاخرى ، فهي لا تدعي أنها تنشىء كل شيء من عدم ، وتبدأ رحلة الثقافة من الصفر ، بل اعلنت نصوصها المقدسة أنها جاءت متممة لما كان قبلها لا مبتكرة ، مكملة للبناء الذي بدأه رسل الله من قبل ، مصححة للمسيرة التي داخلها بعض التحريف أو الانحراف . ولهذا قال رسولها عليه الصلاة والسلام : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فهو متمم لا مبتدىء ، ومكارم الأخلاق لم تقطع جذورها من الدنيا ، بل هي موجودة ، وان كان فيها قصور وتناقض ، ومهمته ان يتممها ويكملها .

وموقف الثقافة الاسلامية من الثقافات الاخرى كموقف نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من النبوات الاخرى ، الذي عبر عنه الحديث الصحيح : « ان مثلي ومثل الأنبياء من قبلي ، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

ومقتضى هذا التكامل الذي اتصفت به الثقافة الاسلامية ، أنها لا تجد مانعا شرعيا يمنعها من اقتباس الحكمة ، والتماس العلم النافع ، والعمل الصالح عند غيرها ، ولو كانوا خصومها . وفي الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه : (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها) . والحديث ضعيف من حيث سنده ، ولكن معناه صحيح ، بإجماع علماء الأمة . وهو ما استقر عليه الفقه والعمل .

وقد طلب الرسول الكريم من اسرى المشركين الذين يحسنون الكتابة ، ولم يتيسر لهم دفع الفدية في غزوة بدر ، ان يفدوا انفسهم بتعليم كل واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة حتى يحذقوا ، فتعلم منهم عدد كان منهم زيد بن ثابت كاتب الوحي ، واحد علماء الصحابة رضي الله عنهم ■

الكحل الحجري
بين الفائدة والضرر

بقلم : د. أحمد عبدالقادر المهندس
جامعة الملك سعود - الرياض



استخدمت المرأة منذ القدم الكحل لتجميل العينين كما استخدمه بعض الرجال كوسيلة لعلاج بعض امراض العيون . كما ان بعض الأمهات تعودن على وضع الكحل في عيون اطفالهن منذ الولادة .

وكان المسلمون الأوائل يكتحلون تأسيا بالسنة النبوية ، فقد كان رسول الله ﷺ يحب التكحل ، وفي سنن ابن ماجة عن سالم عن ابيه يرفعه إلى الرسول ﷺ : « عليكم بالاثمد ، فإنه يجلو البصر ، وينبت الشعر » .

وقد استخدم الكحل الحجري منذ القدم ، حيث يمكن مشاهدة الكثير من التماثيل الفرعونية التي توجد فيها آثار الكحل على العينين ، ولعل اشهر مثل على هذا هو قناع الفرعون المصري الملك توت عنخ آمون ، كما يمكن رؤية الكحل على عيني تمثال الأميرة « نفرت » من الأسرة الرابعة اي منذ (٢٧٠٠ عام) قبل الميلاد ، كما يمكن ايضا ملاحظة الكحل على عيني الملكة « نفرتيتي » وذلك في تمثالها الشهير في برلين بالمانيا .

ولعل اشهر من استخدم الكحل كمادة للتجميل نساء العرب فقد كن يستخدمنه كمسحوق جاف أو على هيئة دهان يوضع في علبة صغيرة تسمى (المكحلة) في وسطها مقبض صغير يسمى (المرود) .

ويصنع المرود على اشكال مختلفة مع نهاية رفيعة مدببة، حيث يستعمل لتكحيل العين، ويصنع المرود من العاج أو الخشب أو الفضة .

وقد تغنى كثير من الشعراء بالعيون الكحيلة ، يقول احدهم :

وإذا نظرت إلى محاسنها
فبكل موضع نظرة قتل
ولوجهها من وجهها قمر
ولعينها من عينها كحل

فوائد الكحل

لا شك ان للكحل فائدة جمالية ، كما ان وضع الكحل على حافة الجفن الخارجية يؤدي إلى انعكاس الضوء مما يقلل من الأشعة المنكسرة إلى داخل العين .

وتدل دراسة قام بها الدكتور علي الكاف من مستشفى الملك خالد للعيون على ان انواع الكحل ذات خاصية مثبطة لنمو بعض أنواع البكتيريا المكورة السبحية والعنقودية ، كما ان الأثمد الداخل في تركيب الكحل هو مادة خاملة لا تسبب تهيجا عند اتصالها بالأغشية المخاطية ولا سيما ملتحمة العين.

تركيب الكحل الحجري

يوجد الكحل الحجري على شكل أحجار خام ، أو على شكل مسحوق داخل قوارير أو أصابع وسوائل معدة للاستعمال،



كما ان بعض النساء يقمن بشراء الكحل الحجري على شكل احجار ويقمن بسحقه واضافة بعض المواد إليه مثل الكافور أو الحبة السوداء ، وبعض الزيوت النباتية . ويمكن تقسيم الكحل الحجري إلى نوعين :

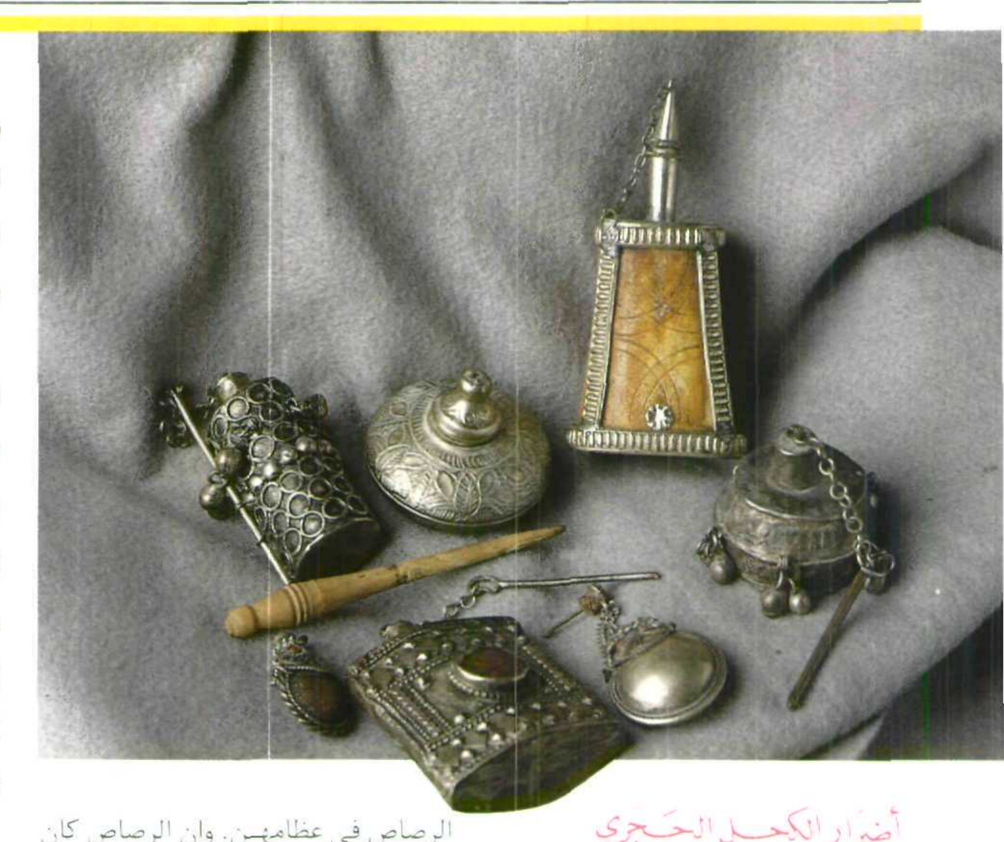
الأول : المركبات الاثمدية الأساس .

الثاني : المركبات الرصاصية الأساس .

والمركبات الاثمدية الأساس هي التي يدخل الأثمد كمكون رئيس في تركيبها ، والأثمد هو الانتيموني (SB) (ANTIMONY) ، وثلاثي كبريتيد الانتيموني .

اما المركبات الرصاصية الأساس فهي تلك التي يدخل كبريتيد الرصاص في تركيبها (PBS) ويعبر عنها معدن الجالينا (GALENA) .

ونظرا لندرة مركبات الاثمد ، وصعوبة تنقيتها من الشوائب فإنه يتم استبدالها بمعدن الجالينا ، الذي يؤدي الوظيفة الجمالية للاثمد من حيث اللون واللمعان ، ويختلف تأثيره من الناحية الصحية . وقد قمت بدراسة معدنية للكحل الحجري في حوالي سبعة محلات تجارية في مدينة الرياض والمدينة المنورة فوجدت ان معظم أنواع الكحل الحجري فيها يحتوي على نسبة عالية جدا من معدن الجالينا (كبريتيد الرصاص) .



أضرار الكحل الحجري

يؤكد بعض الأطباء ان الكحل الحجري الذي يدخل كبريتيد الرصاص في تركيبه له تأثيرات ضارة على الخلايا ، كما ان اكبر أضرار هذا النوع من الكحل هو دخول الرصاص في تركيبه مما يؤدي إلى ترسب الرصاص ببطء في الدم ويؤدي إلى التسمم والفشل الكلوي ، ويزداد الاحتمال باعراض تسمم الرصاص عند الأطفال الذي قد يؤدي إلى الوفاة احيانا .

وقد اجرى الطبيب الامريكي روبير غيتري بعض الدراسات على اطفال كويتيين يعانون من التخلف العقلي . وبعد اجراء تحاليل على عينات من دم أولئك الأطفال ، وجد ان نسبة الرصاص في الدم عالية جدا . كما وجد ذلك الطبيب ، من دراسة على عظام الأمهات ، ترسب كبريتيد الرصاص في عظامهن. وان الرصاص كان ينتقل من خلال المشيمة عند الأم الحامل إلى الجنين مما يسبب له تسمما بالرصاص الأمر الذي يؤدي ايضا إلى التخلف العقلي .

عنصر الرصاص السام

ان استخدام الكحل الحجري عند المرأة العربية والهندية والباكستانية هو السبب المباشر لحوادث التسمم بالرصاص ، حيث ان هذا الرصاص يمكن ان يذوب بسهولة في الدم وينتقل إلى الجنين . ويمكن للرصاص ان يترسب في خلايا دماغ الجنين مما يسبب تخلفا عقليا واضحا .

ان الرصاص عنصر سام وله تأثير بيئي ضار ، ويمكن ان نذكر هنا ان عمال الصف على آلات الانترتيب كانوا يصابون بامراض الجهاز العصبي ، نظرا إلى ان تلك الآلات كانت تعتمد على الرصاص لصف الأحرف والكلمات ، وعند استنشاقهم لأبخرة الرصاص كانوا يتعرضون للأمراض المختلفة . وقد توقف استعمال هذه الآلات بعد دخول الحاسوب عالم الطباعة .

كما ان عنصر الرصاص موجود في الجازولين ، ولهذا فإن كثيرا من الدول المتقدمة بدأت منذ فترة بتحريم استخدام الجازولين الذي يحتوي على رصاص . كما ان الدهان والأصباغ تحتوي على نسبة من عنصر الرصاص الذي يمكن ان يؤدي إلى تسمم طفل يتناول قشور الدهان من الأرض أو الجدار المطلي بأصباغ أو دهانات تحتوي على مركبات الرصاص .

ومن اجل القضاء على الأضرار المترتبة على استخدام الكحل الحجري الذي يحتوي على مادة الرصاص في الأسواق ولدى بعض العطارين ، أوجز النقاط الآتية :

* ضرورة توعية المواطنين باخطار الكحل الحجري المحتوي على الرصاص .

* منع اضافة الجالينا (كبريتيد الرصاص) إلى اي نوع من أنواع الكحل المستورد .

* القيام بدراسة علمية وطبية على فوائد الأثمد ومركباته على انسجة العين ، وعلى امتصاص الجسم له ولمركباته .

* استخدام مستحضرات الكحل الحديثة التي لا تحتوي على الرصاص أو المواد المهيجة للعيون .

* اجراء المزيد من الدراسات الطبية من قبل الباحثين حول تأثيرات الكحل عموما والكحل الحجري خصوصا ، على العين، وعلى التسمم بعنصر الرصاص ■

تصوير عبدالله الدبيس - ارامكو السعودية

حضارة سبأ في القرآن الكريم

بقلم : د. نـاول عبد الهـادي - المغرب

عند دراسة حضارة أمة من الأمم يتجه فكر الباحث إلى جوانب متعددة من منجزات هذه الأمة. وتكاد الدراسات الحضارية لأية أمة تنحصر في مجموع المعارف العلمية والحالة الفكرية والخلقية والإجتماعية والإقتصادية وسائر مظاهر الحياة المادية والمعنوية في مرحلة من مراحل التاريخ وفي بقعة من بقاع الأرض.

إن شبه الجزيرة العربية مهد العرب وموطنهم الأصلي، فكل من سكنها فهو عربي منسوب إليها، وقيام الحضارة العربية قبل الإسلام بأكثر من عشرين قرناً وانتماؤها إلى الأمة العربية التي سكنت الجزيرة العربية وتكلم العرب باللسان العربي كل تلك العوامل مجتمعة تفسر لنا تسميتها بالحضارة العربية.

إن شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام لم تكن معزولة عن العالم وإن بدت كذلك لمن لم يتعمق في دراسة أحوالها، فهذه البلاد بصحاريها الشاسعة وقلة مواردها التي أدت إلى فقر سكانها وكثرة تنقل البدو من أهلها طلباً للرزق توحي للناظر إليها بأنها لم يتهيأ لها من الأسباب ما يساعد على قيام الحضارة، ولكن الواقع غير ذلك، فهذه الجزيرة المترامية الأطراف قد خضعت لعوامل مختلفة من التأثيرات التاريخية والحضارية، ومن المعروف أن الحضارات القديمة كانت تنشأ في أودية الأنهار أو فوق التلال المشرفة على البحار، وقد صدق هذا على كثير من الأقاليم التي ازدهرت بها الحضارة في التاريخ القديم مثل وادي النيل بمصر، ولو طبقنا هذا على أرض العرب وجدنا أنها وإن خلت من الأنهار فإنها لم تخل من السواحل ومن التلال المشرفة على البحار، ولهذا فقد ازدهرت في اليمن حضارات متعددة وقامت بها أسر حاكمة مستقرة دام حكمها قروناً وكانت لها آثارها التاريخية والحضارية، ومن أعظم وأهم هذه الحضارات «حضارة سبأ» التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في سورتين: [١] هما : سورة النمل، الآيات من ٢٢ إلى ٤٤. وسورة سبأ، الآيات من ١٥ إلى ١٧

وفيما يلي عرض لما جاء في السورتين الآنفتي الذكر حول حضارة «سبأ» التي يمكن حصرها في النقاط التالية:

أولاً: جاء في سورة النمل، الآية: ٢٢ ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ . وسبأ اسم مملكة تقع في جنوب الجزيرة العربية باليمن وسبأ في اللغة اسم رجل [٢] ولما سئل النبي، ﷺ، عن سبأ قال اسم رجل [٣] .

وقد ورد اسم سبأ في التوراة بأنها «بلاد تنتج الطيوب واللبان والاحجار الكريمة ومعدن الذهب» [٤] .

وقد اختلف المؤرخون في أصل السبئيين فبينما تذكر الروايات العربية أن سبأ من ولد يشجب بن يعرب بن قحطان وتسميه بعبد شمس، وتفسر تسميته بسبأ بأنه كان أول من سبى السبي من ملوك العرب، وأدخل إلى

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبأ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

اليمن السبايا فسمي لذلك بسبأ [٥] كما نجد أن اسم سبأ ورد في التوراة باعتباره من كوش بن حام مرة ومن ولد يقطان مرة ثانية [٦].

وأغلب الروايات تشير إلى أن السبئيين شعب عربي كان ينتقل بين شمال جزيرة العرب وجنوبها، ثم استقر هذا الشعب في بلاد اليمن فيما يقرب من عام ٨٠٠ ق. م. نتيجة لضغط الأشوريين عليهم في الشمال واستغل السبئيون ضعف الدولة المعينية فأخذوا يوسعون منطقة نفوذهم حتى قضوا على الدولة المعينية وأقاموا دولتهم على انقاضها حيث اتخذوا «صرواح» ثم «مأرب» عاصمة لهم، وتقع مأرب إلى الجنوب الشرقي من صنعاء في أرض ترتفع عن مستوى البحر نحو (٣٩٠٠) قدم وتبعد عن صنعاء بنحو (٦٠) ميلاً، وقد ازدهرت مأرب في عصر السبئيين وتألقت كمركز تجاري مهم، وأعظم أبنيتها وأشهرها قصر ملوكها ومعبدها الكبير، أما القصر فهو القصر المعروف بقصر (سلحن) أو (سلحم) وقد ورد ذكره في النقوش القديمة، أما معبدها فهو معبد (المقه) ومازالت إلى الآن بقايا أعمدته التي يبلغ طول العمود الواحد حوالي (٣٠) قدماً.

ثانياً: جاء في سورة النمل، الآية ٢٣ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ هذه الآية تشير إلى وجود امرأة لم يذكر اسمها حاكمة ومسيطرة في سبأ وأوتيت من كل شيء، وهي كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضارة والقوة والمتاع، وقد كثر كلام الباحثين والمؤرخين حول هذه الشخصية الفذة وقد أورد صاحب الموسوعة العربية الميسرة حول هذه الشخصية فقال: «بلقيس الهدهاد بن شرحبيل ملكة سبأ ورد ذكرها في القرآن الكريم، ولِيت الحكم بعد أبيها، على أمر اليمن كله وزحفت إلى بابل وفارس ثم عادت إلى اليمن، واتخذت سبأ قاعدة لملكها، وتزوجت من سليمان وآمنت بدعوته وماتت في تدمر، وقد ذكرت المصادر الحبشية أنها كانت تسمى (ماكدة) وذكر ابن خلدون أنها كانت تسمى (يلقمه) أو (بلقمه) وفي جهات كثيرة من اليمن معابد يطلق عليها الناس اسم بلقيس» [٧].

وقد ذهب المؤرخ اليهودي (يوسفوس) « إلى أن هذه الملكة كانت ملكة أثيوبية وكانت تحكم الحبشة ومصر وأن سبأ اسم عاصمة الأحباش» [٨].

ونجد زعم هذا المؤرخ اليهودي شائعاً بين أهل الحبشة فهم يذهبون حتى اليوم إلى أن الأسرة المالكة السابقة التي كان آخر ملوكها (هيلاسلاسي) الذي أطيح به منذ سنوات قليلة من سلالة سليمان وزوجته ملكة سبأ، والرأي الراجح أن هذه الملكة العظيمة قد ادهشت العبرانيين من جهة تصرفها ورجاحة عقلها وثرائها فرأوا كعادتهم ألا تنسب مثل هذه الملكة إلى العرب وهذا ما يجب أن ننتبه إليه عند دراسة تاريخنا وحضارتنا.

وربما تكون هناك علاقة تاريخية بين اسم هذه الملكة العربية واسم منطقة (بلقس) القريبة من مدينة الفائدية بالجبل الأخضر بالجماهيرية الليبية، وربما اتيحت لي الفرصة يوماً ما لدراسة مثل هذه الروابط التاريخية التي تدل على عروبة سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي نتيجة للهجرات المتوالية من الجزيرة العربية إلى الشمال الأفريقي خاصة بعد انهيار سد مأرب مما جعلهم يطلقون بعض الأسماء المشهورة على المناطق التي يستقرون بها مثل (بلقس) الآنفة الذكر أو(خولان) المنطقة الواقعة في جنوب شرق الجبل الأخضر بالجماهيرية الليبية، التي كانت تسمى بها إحدى القبائل العربية وهي قبيلة (خولان)، والتي «ذكرت في عدد كبير من الكتابات العربية الجنوبية وقد رأينا اسمهم لامعاً في أيام المعينين» [٩].

ويشير القرآن الكريم إلى عظمة هذه الملكة وتقدمها الحضاري حيث نراها تستشير قومها في أمر سليمان ودعوته هي وقومها إلى الإيمان بالله فتقول في سورة النمل ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾. الآية: ٣٢

وهذا القول يتركز فيه مبدأ الشورى لأن الشورى دعامة من دعائم الحكم الصالح، فمبدأ الشورى قررته ملكة سبأ على نفسها ونوه به الإسلام واعتمده مبدأ من مبادىء الحكم الإسلامي في قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ وقوله أيضاً ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾.

ويمكن بفضل النقوش السبئية تقسيم عصر الدولة السبئية إلى مرحلتين:

الأولى: في هذه المرحلة كان الرئيس يطلق عليه لقب (مكرب) أي المقدس وأول مكارب سبأ هو (سمه على) الذي أسس دولة سبأ، وقد امتد عصر المكارب من سنة ٨٠٠ ق.م. إلى سنة ٦٥٠ ق. م..

الثانية: وفي هذه المرحلة اطلق على رئيسهم لقب (ملك سبأ) وقد استمرت هذه المرحلة إلى سنة ١١٥ ق. م. وأول من تلقب بلقب ملك هو (كرب ايل وتر)، ثم بدأت الدولة في الضعف نتيجة للحروب التي خاضتها مع جيرانها ونتج انفصال بعض الإمارات واستقلالها عن السبئيين مما اضر بالوضع السياسي والإقتصادي لمملكة سبأ ومكن الدول الأجنبية [١٠] من التدخل في شؤونها، وادى بالتالي إلى فقدان السبئيين السيطرة على البحر الأحمر وسواحل أفريقيا بعد أن انتقلت التجارة البحرية من أيديهم إلى اليونان والرومان، وقد انتهز (الريدانيون) و(الحميريون) [١١] ضعف السبئيين فتمكنوا في النهاية من انتزاع العرش السبئي وأسسوا في سنة ١١٥ ق. م. أسرة جديدة لقب ملوكها بلقب «ملوك سبأ وريدان» وهم الحميريون.

ثالثاً: قال الله تعالى في سورة سبأ الآية: ١٥ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

من الثابت أن الزراعة هي مصدر الخير والقوة خاصة في

الزمن القديم، وقد عرف أسلافنا ذلك فاهتم (مكارب) سبأ منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد بالإصلاحات الزراعية واستغلال أرضهم للزراعة وينسب إلى (سمه على ينف)، وهو كما يظن ثالث من تسموا بهذا الاسم، تنفيذ أعظم مشروع للري عرفته بلاد العرب في القديم وهو إنشاء سد على فم وادي (ذنه) بمأرب يعرف باسم سد (رحب) وكان طوله (٨٠٠) ذراع وعرضه (١٥٠) ذراعاً وقد أكمل بناءه كل من (ذمر على وتر) و(شمر يرعش) وكان بناؤه بالحجارة، وقد صمم بحيث تتفرع منه عدة قنوات وكان على فوهة كل قناة سد آخر مبني بالحجارة وفيه فتحة أشبه بالناظم، وكان السد أشبه بخزان عظيم لمياه السيول التي تتكون من الأمطار الساقطة على الجبال المحيطة بصنعاء، وبعد ان اصبح هذا السد غير كاف لسد جميع حاجات الأراضي المزروعة بنى (تيعمر بيان) سداً آخر يعرف بسد (حبابض) وهذان السدان العظيمان حققا أكبر عمل هندسي للري عرفته الجزيرة العربية، كما تم بناء قناطر على أعمدة يجرى الماء فوقها لإرواء المدن، وسدود وأحواض تدل على نبوغ أهل اليمن في فن العمارة وهندسة المباني ومعرفتهم بأنظمة الري، « وقد قام (ادورد كلازر) وهو يهودي نمساوي بأربع حملات علمية إلى اليمن حصل خلالها على نحو ٢٠٠٠ نقش واستطاع أن يرسم خارطة لسد مأرب، وكان ذلك خلال الفترة من ١٨٨٢ إلى ١٨٩٤م (١٢).

وقد ترتب على اقامة هذه السدود زيادة الرقعة الزراعية وتنوع المحاصيل وزيادة ثروة البلاد، وتحولت مأرب إلى جنتين عن يمين وشمال كما ورد بالقرآن الكريم. ويتحدث (ثيوفراست) تلميذ ارسطو في كتابه تاريخ النبات عن طيوب بلاد العرب الشهيرة، فيذكر أشجار الصبر والبخور ويشير في جملة ما ذكره عن بلاد اليمن إلى السبئيين فيصفهم بأنهم محاربون وزراع وتجار يسافرون على وجوه البحار في السفن أو زوارق من الجلد للتجارة (١٣) كما لخص المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم: « واليمن معدن العصائب والعطر والعاج واللؤلؤ» (١٤).

وقد لعب السبئيون دوراً كبيراً في التجارة العالمية، وهذه التجارة تحتاج إلى ذكاء وحسن إدارة ومعرفة باللغات والعادات وتأمين سلامة الطرق، وكل هذه الصفات التي تنم عن تقدم حضاري عظيم كانت عند أجدادنا في الجزيرة العربية، فقد كانوا من أعظم التجار في ذلك العهد « حيث كان لمنتوجات اليمن سوق رائجة في مصر كما عمل السبئيون كوسطاء للتجارة بين الهند وبلاد العراق والشام ومصر » (١٥) وقد ذكر المؤرخون « أن السبئيين جمعوا ثروات هائلة من التجارة في الطيوب وقد انعكس ذلك في صناعاتهم وفنونهم كما انعكس في حياتهم الإجتماعية والتحف الرائعة التي تزخر بها قصورهم والتي بالغوا في تزيينها وتزويقها على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان» (١٦).

وقد ترتب على تقدمهم التجاري أن اصبحوا خير من يجيد الملاحة في المحيط الهندي والبحر العربي حيث كانوا يبحرون فيها بحسب الرياح الموسمية، وقد تعلم الرومان من أهل اليمن الملاحة في هذه البحار بحسب مواعيد الرياح الموسمية المشار إليها، ونتج عن هذا أن قلت أهمية الطريق التجاري البري الذي كان يسلكه التجار العرب في اليمن والحجاز، كما أدى إلى انتعاش المدن اليمنية على ساحل البحر الحمر.

وقد أشار القرآن الكريم إلى زوال هذه الحضارة العظيمة التي كان مصدرها سدود مأرب نتيجة لإعراضهم وظلمهم في قوله تعالى في سورة سبأ الآية: ١٦ ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾، «وقد سجل حكام سبأ حروبهم وانتصاراتهم في النقوش التي عثر عليها» (١٧) التي تشير إلى حروبهم التدميرية على القبائل والدويلات المجاورة لهم بالإضافة إلى عودتهم من التوحيد، في عصر سليمان في عهد الملكة (بلقيس) التي أسلمت هي وقومها كما جاء في سورة النمل الآية ٤٤ ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، إلى الوثنية مرة أخرى، فاستحقوا عقاب الله فأرسل عليهم سيل العرم فدمر سدودهم وهدم حضارتهم وتفرق أهلها في الأرض حتى قيل «ذهبوا أيدي سبأ» (١٨) أي تفرقوا.

وأخيراً: فمن المؤسف أن عناصر تراثنا وحضارتنا العربية مكدسة في متاحف الغرب، وأن من ينقب عنها مستشرقون، فعلى القادرين من العرب والمسلمين أن يراجعوا ما كتبه الأجانب وينقوا ما فيه من مغالطات كانت حرباً ثقافية علينا ولا تزال، وأن يستعينوا بقدر الإمكان بما جاء في القرآن الكريم من قصص وتاريخ وحضارة حول العرب حتى يرفع النقاب عن وجه التاريخ الصحيح ■

المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم
٢- مختار الصحاح، محمد الرازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص: ٢٨١.
٣- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٤ ص: ٢٨٢
٤- الكتاب المقدس سفر أرمياء اصحاح ٦ آية ٢٠.
٥- معجم البلدان ياقوت مجلد ٣ ص ١٨٠.
٦- أخبار الأيام الأولى اصحاح ٦ آية ٩ ص ٦٣٣ وأيضاً سفر التكوين اصحاح ١٠ آية ٢٨ ص ١٦.
٧- الموسوعة العربية الميسرة، محمد شفيق غربال جـ ١ ص: ٤٠٠.
٨- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد على جـ ٢ ص ٢٦٣.
٩- المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٠٠.
١٠- مثل الحملة العسكرية الرومانية على بلاد اليمن في عهد الأمبراطور «أغسطس».
١١- الريدانيون: شعب عربي جنوبي يسكن قرب الساحل للجزيرة العربية إلى الشمال من حضر موت بينما كان الحميريون وهم شعب عربي جنوبي يسكن إلى الغرب من حضر موت.
١٢- أصالة الحضارة العربي، د. ناجي معروف ط ٣ ص ٨٧.
١٣- إكتشاف جزيرة العرب، جاكلين بيرين.
١٤- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي، ليدن ١٩٠٦م.
١٥- محاضرات في تاريخ العرب، فيليب حتى، ص ٥٦.
١٦- المصدر السابق ص ٥٦.
١٧- التاريخ العربي القديم، د. تيلف نيلسون وآخرون، ص ٢١٩.
١٨- معجم البلدان، ياقوت الحموي، مجلد ٣ ص ١٨١.

نظرة تأملية في جراحة اليزاروف

بقلم الدكتور : عماد سويد
والدكتور : خالص چلبي - القصيم

أصيب جراح العظام الايطالي (كارلو مونري) بكسر في ساقه ، وبعد المعالجة تطور هذا الكسر إلى اختلاط كريه ، نتج عنه اندمال معيب متقيح مزمن ، مما خلق لجراحي العظام الايطاليين تحديا في معالجته ، وكادت الحالة ان تفضي إلى البتر . وعندما حمل الجراح الايطالي شكواه إلى زميله ، اشار عليه بجراح للعظام ، صعب الاسم، غامض الشهرة، يعيش في صقيع سيبيريا ، ويقوم بجراحات جديدة مثيرة، اسمه « اليزاروف » .

استطاع « اليزاروف » ان يسيطر على الحالة ، ويصل بها إلى شاطىء السلامة ، فزال القيح ، واستقامت الساق ، واندمل الكسر .

هذه القصة كانت السبب في خروج « اليزاروف » وطريقته من الشرنقة السوفيتية ، والتدجين الايديولوجي للعلماء ، كما حصل من قبل مع افيلوف وليزانكو في قصة علم الوراثة والايديولوجية . خرج (اليزاروف) من الشرنقة الضيقة ، ليطير إلى العالم بجناحي فراشة جديدة ، وبذلك ولد علمه في العالم، وكتب له النماء ، وسادت طريقته ، واصبحت منهجا قائما بذاته في المعالجة .

فما هي طريقة « اليزاروف » ؟ وما هو الجديد فيها في فن جراحة العظام ؟ اية افكار تسيطر على نواتها ؟ اية منهجية توجه حركتها ؟ بل وأين الابداع في هذه الطريقة ؟

في جو الصقيع والبرد القارس في « كورجان » جلس (اليزاروف) لفترة تزيد عن نصف قرن وهو يتأمل الواقع البيولوجي ، محاولا اكتشاف اسرار جديدة ، وقوى مجهولة ، ومعادلات غامضة وآليات لا تطفو على السطح .

كان عليه قبل كل شيء كسر المسلمات السابقة ، والايديولوجيات الدوغمائية في المعالجة الجراحية لأن مشكلة المشاكل ، وجوهر الإعاقة العقلية ما هو متعارف عليه وما هو سائد .

في التصور القديم يبقى القزم قصيرا ، لا يرفع رأسا، ويطلب العون ، ويستدر الشفقة ، تتعثر قدماه في المشي ولسانه في النطق ومن اصيب بالتشوه أضحى قدراً لا يمكن تغييره، ولا أحد يفكر في تغيير ما استقر عليه الانحراف والاندمال المعيب والتقيح المزمن الكريه مصيره إلى البتر ولو بعد حين والمشلول كتب عليه ان يبقى مقعدا مدى الحياة ، يتجرع الغصص ، ويزدرد الحسرات ، وعلى صاحب الكسر ان يجر طرفه الثقيل

لأسـابيع طـويلـة بجبـس ابيض، حتى يلتئم الكسر ، وتتكلس الحواف ، ويتشكل الدشبذ ، وبذا فهمت العضوية على نحو جامد ثابت لا يتغير ، ولكن هل الوجـود كذلك ؟ إن فهم الوجود على أنـه كم ثابت يمثل نصـف الحقيقة، ذلك ان الحيـاة تسبح بين الجمود والحركة، بين الثبات والتطور، بين الوجود والصيرورة ، وعندما يتدخل الجهـد البشري ليمط قصيرا ، أو يصلح تشوها ، او يقوم معوجا ، فإنه يعالج في الواقع ضمن السنن التي تسيطر على الـوجــود المادي والبيـولــوجي والنفسي والإجتماعي والحضاري والبشري برمته .

دخل دماغ اليـزاروف إلى مخ العظام لفهم آلية نمـو العظام وعلاقتهـا بالأنسجة المحيطة، فقلب المفـاهيم السائدة، ورأى انه: إذا كان الكسر ينشط النمـو فيندمل الكسر ، أي ان الكسر هو الـذي يحرض آلية النمو، فما المانع ان أسخر هـذه الآلية ، وأضع يـدي على سرهـا ؟ ليس ان أجبرّ كسرا، بل اكسر عظما سليما كي اضع تحت تصرفي هذه (الآلية - الميكانيزم) فأوجّه النمو توجيهاً سليماً ، وبذا - طالما ان مستودعات النمو موجودة - أستطيع أن أطيل عظما، أو أقـوم معـوجـا ، أو أقـاوم تقيحـا بأسلحة النمو هذه .

هذه هي جـوهر فكرة اليزاروف ، هي بسيطـة ولكنها رائعة وانقلابيـة . وهي جميلة وساحرة وجمالها يأتي من بسـاطتها ، لأن اهم عناصر الجمال البساطة .

فكـرة (اليــزاروف) تقـوم ليـس على تجبير العظـام ورد الكسور، بل كسر العظام ، وتحريض النمو في العظم والأنسجة المتصلة بـه ، من أعصاب ، وشرايين وأوردة ، وعروق لمفـاوية ، وعضلات ، وفي النهاية الجلد الذي يتمطى ؟!

ان هذا الشق والكسر للعظم يتولى القسم الخارجي فقط ، أي قص القشرة الخارجيــة وتثبيتهــا من الخارج بحلقــات ، ومسـامير ، واعمـدة ، بشكل ميكــانيكي مـدروس في الاتجاه الصحيح ، ثم شـد الطـرفين المكســورين بعيـدا عن بعضهما لتخفيز آلية النمو، وبذا يمكن اطالة العظم ، ومد الشريان ، ومط العصب ، وزيـادة الأوردة ، وترميم الأنسجـة المهددة، وتقـويم الأعضاء المعـوجة . فهـي كما نرى فكـرة رائدة تعتمد على ان يرمم الجسم نفســه بنفسه . فيتم بها تحسين الـدورة الدمـوية وتنشيط السيالة العصبية ، ورفع تقلص العضلات ، وشد الأوتار ، والتخلص من القيح ، ومط الجلد ، وزيادة الجمال في الأطراف والتخلص من التشوهات .

وتتيح طـريقة اليـزاروف لمن كسرت ساقـه ان يمشي على كسره مباشرة ، وللمشلول ان يبدأ في الحركة . وهناك تجارب الآن على نخاع الظهر عند المشلولين ، لتنشيط نموه (وهو من مستحيلات العلم اليوم) ، ولتنشيط الدورة الـدموية بضخ الدم وتحسين الدوران ، وفي الأقزام ان يمنحهم بسطة في الجـسم - تم ضرب رقم قيـاسي بتطـويل وصل إلى ثـلاثين سنتيمترا بمعدل ملمتر يـوميا - وبهذه الطريقـة استطاع المشـوهون ان يستعيــدوا عــافيتهم ، وجمال شكلهم ، وحق للمقعــدين ان يتفاءلوا بدخول عتبة جديدة في طرق معالجتهم .

قال صلى الله عليه وسلم : « ما أنزل الله من داء الا وجعل له دواء عـرفه من عـرفه ، وجهلـه من جهله » فهـذا الحديث يفتح البـاب امــــــام فكـرة الشــفاء لأي مـرض مهما استعصى واستفحل.

وبعد فإن طريقة اليزاروف ليست سحرا ولا الغازا ، فلا توجد اسرار في العلم، كما انها ليست فوق النقـد ولا دون الخطأ ، بل هي فهم لسنة الله في خلقه ، والقوانين التي تحكم البيولوجيا ، وإذا كان الحديد ثقيلا ومن طبيعته ان يسقط على الأرض، فإن الذكاء الانسـاني حوّله إلى طيارة تحلـق في الأجواء ، وصاروخ يخترق الجاذبية ، ليس بخـرق القانون ، بـل باستخدام قـانون جـديد يتخلص بـه من قـانون الجاذبيـة ، فالتشـوه ، والشلل، والعجـز ، والصمم ، والضعف ، والتردي ، حـدث بفعل قـانـون «سقوط» ، ونحن نعالجه بقانون «صعود» ■

عمليّة تقويم أداء الموظفين بين النجاح والفشل

بقلم: د. محمّد عبدالله البرعي
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن - الظهران

تقويم أداء الموظف جزء من عملية قياس الأداء التي يقوم بها المدير أو من يُنيبه، بشكل دوري، لتقدير وتثمين وقياس عمل الموظف بهدف تحسينه مستقبلاً وتقويم أدائه إذا كان أقل من المستوى المطلوب، وهي لغوياً أصح من كلمة تقييم. ويكوّن التقويم قاعدة لإتخاذ القرارات الموضوعية في شؤون الأفراد من ترقية أو نقل أو مكافأة أو زيادة في الراتب أو فصل نهائي من الوظيفة.

أهداف عملية التقويم

تهدف عملية تقويم الأداء إلى إفادة كل من الموظف والإدارة على حد سواء. فبالنسبة للموظف، فإن تقويم الأداء يوضّح للفرد مدى نجاحه وتقدمه أو قصوره وتقهقره في عمله الحالي، كما تُحدّد إمكانات النمو والتقدم في المنشأة بالنسبة للفرد أو الموظف اعتماداً على نتائج تقارير الأداء. وأخيراً، فإن إطلاع الفرد على تقديم مستوى أدائه مهم جداً للإستفادة من ذلك في تحديد ما يحتاج إلى تحسينه أو بذل جهد أكثر بطريقة فعّالة وبناءة بعيدة عن التهديد والوعيد.

أما بالنسبة للإدارة، فإن عملية تقويم الأداء تهدف إلى اطلاع المديرين على قائمة بالأفراد تساعدهم على الإختيار الجيد للأفراد والموظفين المستحقين للترقية أو النقل. كما تهدف إلى وضع الموظف المناسب في المكان المناسب، وتهدف أيضاً إلى إيجاد معدلات لتغيير سلوك الموظفين نحو عادات عمل جيدة تحرص الإدارة على الوصول إليها، والى وضع الأصابع على أماكن الخلل والمشاكل وتنبيه الإدارة إليها، لا سيما عندما تشير تقارير تقويم الأداء إلى إنخفاض إنتاجية الأفراد العاملين في أقسام محددة من المنشأة.

عملية التقويم

غالباً ما يقوم بهذه المهمة الرئيس المباشر للموظف أو من ينوب عنه، لأن الرئيس المباشر هو أكثر الناس إلتصاقاً بمرؤوسيه، وخبرة بموظفيه ومعرفة بأدائهم الوظيفي بسبب معايشته اليومية لهم. لذا نجد كثيراً من المؤسسات في القطاعين الخاص والعام تكاد تعتمد أعتماداً كلياً على الرئيس المباشر في تقويم أداء الموظفين.

وهناك منشآت أخرى تعتمد على شؤون الموظفين بالتعاون مع الرئيس المباشر في إعداد تقارير تقويم الأداء.

بينما تشجع بعض المنشآت والمؤسسات التعليمية مثل الجامعات عملية التقويم الذاتي، حيث يقوم الموظف نفسه بإعداد تقويمه الشخصي وذلك بملء


رئيس يناقش مع موظفيه بعض موضوعات العمل.





احد البرامج التدريبية التي يحضرها عدد من الموظفين من شأنها ان تعمل على تحسين الاداء ورفع كفاءة الانتاج.

نموذج خـاص يضع فيه كل انجازاتـه خلال العام المنصرم. ومن أطـرف مـا قيل في التقـويم الذاتي أو الشخصي مـا ينسب إلى قنثر بـرينك الذي قـال: «بعد سماعي رأي كل موظف من الموظفين التابعين لدائرتي في تقـويمهم الـذاتي لأدائهم الـوظيفي، تـوصلت إلى حقيقة واحـدة وهي أن لـدي ثلاثة أنواع من النـاس يعملون معي: نجوم، ونجوم عالميون، ونجوم متفوقون».

كما توجد طريقة أخرى تستعمل في عملية تقـويم الأداء وهي استطـلاع آراء الأفـراد المرؤوسين أو التابعين في رئيسهم، فيكون التقـويم هنـا من الموظف لمديـره، وفي المرؤوس لـرئيسه، ومن الطـالب لأستـاذه وهكـذا .. وهـذا النـوع من التقـويم يماثل عملية التقويم الذاتي، إذ أن هذين النوعين مفيدين ولاشك، ولكـن كعنصر من عناصر عديدة وليس كعنصر وحيـد أو عملية كاملة للتقويم.

كما أن التقـويم عن طريق زمـلاء العمل أو الأنداد «جمع ند» وهو نظير أو صنو الشخص المراد تقويمه. وتظهر هذه الطـريقة بوضوح أكثـر في غير القطـاع الخاص والمنشـآت التجـارية، منتشر في الجامعـات حيث يتم ترقية أستاذ من مـرتبة أكاديمية إلى أخرى عن طـريق لجنـة مكـوّنـة من زمـلائه في التخصص وأساتذة آخرين للنظر في أعماله وتقـويمهـا وإعطاء التـوصيـة في قـرار يتم بطريقة الإقتراع السرّي.

وهـذه الطـريقـة تشبـه طـريقـة التقـويم المشترك لقيـاس كفـاءة العـاملين والموظفين وأدائهم، وأساس هـذه الطريقة هو أن يتم تقويـم الموظف بطريقة الإقتراع السري من قبل أفـراد جماعـة العمل التي هـوعضو فيهـا دون أي اعتبـار للمركـز الإداري.

طرق التقويم

هناك طرق كثيرة ومتشعبة لتقويم الأداء لا يتسع المجال لمناقشتهـا وحسبنا أن نعدد بعضها:

* طريقة الإدارة بالأهداف.
* طريقة المقالات.
* طريقة الوقائع الحرجة.
* طريقة التقديرات البيانية.
* طريقة قائمة عناصر الكفاءة المهمة.
* طريقة المقاييس التدريجية.
* طريقة السلوك المثبت.
* طريقة التوزيع الإجباري.
* طريقة الإختيار الإجباري.
* طريقة المقارنات الثنائية.

وقد تطـرقنا لـذلك في بحث نشر قبل عدة سنوات في «المجلـة العربيـة للإدارة» وهـو بحث ميداني على عينة مـن المنشآت وفيه ذكـرنـا كل طـريقـة ونسبتهـا المئـوية المستعملة من قبل المنشآت السعودية في القطاع الخاص.

أسباب فشل عملية التقويم

هنـاك أسباب مهمـة قد تـؤدي إلى فشل عملية تقويم الأداء وبالتالي عدم الإستفادة منها حتى ولـو طبقت بشكل دوري كما هو الحال في الكثير من المنشـآت الخاصـة والعامة.

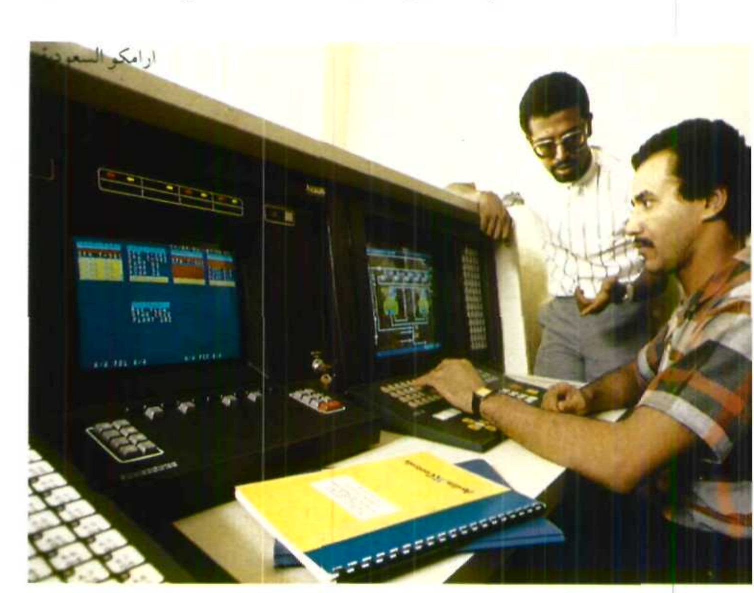
وفي نظـري، فإن أهم أسبـاب عـدم رضـا الموظفين في منشآتنا السعودية عن عملية تقـويم الأداء تكمن في إعتقـادهم بأن المدير المنـوطة به عمليـة تقويم الأداء غير مـوضوعي، أو منحـاز لفئة دون أخـرى، أو ممن يـؤمن «بـالشكلية» والمحسـوبيـة والمحابـاة. وإذا ما تـرسخت هـذه الأفكار وتعمق هـذا الإعتقـاد في أذهـانهم فمن الصعب تغييره، خـاصة إذا كـانت الصـورة مدعومـة بسلوكيات وتصرفات تـؤكد وتعزز وجهة النظر هذه.

لـذا، فإن المديـر الـذي يـؤمن بمبـاديء المحسـوبيـة، والمحـابـاة في إعطـاء التقديرات، والشكلية في التقدير والتقويم، يسيء إلى جوهر عملية التقويم ويسعى إلى تقويضها ونسفها من الأساس. وما من شك في أن المسؤولين والمديرين الذين يتولون

عملية تقويم الأداء الوظيفي هم أولاً وأخيراً بشر غير منزهين عن الأخطاء والعيوب، وذلك لأسباب كثيرة منها أن الطبيعة البشرية في حد ذاتها غير منزهة عن الخطأ أو معصومة منه. ومنها، أن بعض المديرين لا يمتلك المعرفة الجيدة بأساليب التقويم وطرقه المستعملة، ومنها شعورهم بعدم الراحة بل الحرج من تقويم أو نقد موظفيهم إبان عملية التقويم.

فلو تغلب الرئيس أو المدير المقوِّم على هذه الأخطاء - والأخطاء التالية التي سنذكرها فيما بعد - لأصبحت عملية تقويم الأداء الوظيفي ذات فائدة جمّة للموظفين والمديرين على حد سواء.

وقد حدّد (تيري لاو) في إحدى مقالاته ثمانية أسباب تؤدي أحياناً إلى فشل التقويم نوجزها فيما يلي :



موظف يقوم باداء عمله بعد ان تلقى تدريبا كافيا .

أولاً : خطأ تعميم الصفات: ويعد هذا الخطأ أكثر شيوعاً من غيره. ويقوم المديرون والرؤساء بإرتكاب هذا الخطأ عندما تُقوم الصفات المختلفة للفرد بناء على انطباع عام تكونَ لديهم عن هذا الموظف أو ذاك نتيجة لصفة واحدة إمتاز بها مثل الخط الجميل في كتابة التقارير أو أية صفة أخرى مع عدم التفرقة والتمييز بين صفات أو جوانب الأداء المختلفة للموظف.

ثانياً: خطأ المذراة: وهو عكس خطأ تعميم الصفات السابقة الذكر. ويتمثل هذا الخطأ في أن المدير أو الرئيس الذي يقوم بعملية التقويم قد يكره صفة من الصفات التي يتحلى بها موظف ما، ولو تبين للمدير وجود هذه الصفة في هذا الموظف مثل التدخين على سبيل المثال، فإن الصفات الأخرى كافة، حتى ولو كانت جيدة، سوف تقوّم سلبياً.

ثالثاً: النزعة إلى المركزية: يرتكب خطأ النزعة المركزية المديرون والرؤساء حيث يتجاهلون أو يبتعدون عن إعطاء تقديرات وعلامات عالية أو منخفضة. فهم يقومون بإعطاء موظفيهم درجات متوسطة أو قريبة من النقطة الوسطى في مقياس الأداء دون أي إعتبار للفروقات الفردية والإختلافات الحقيقية في كمية ونوعية الأداء لكل شخص.

رابعاً: خطأ الحداثة أو الجدّة: يرتكب بعض المقومين هذا الخطأ عندما يقعون ضحية اعتمادهم على إنجازات الموظفين الحديثة والقريبة. لذا فقد يلجأ الموظف الذي يعرف أن رئيسه المباشر من هذه النوعية إلى تأخير الإنجازات المهمة في نهاية السنة، ويبدي في الفترة الأخيرة جهداً وطاقة فوق العادة، وذلك لإيهام الرئيس المباشر بأنه نشط ومنجز وفعّال، مع العلم بأنه كان خاملاً طوال السنة. وعادة ما يحاول مثل هذا الموظف عدم إرتكاب الأخطاء في آخر العام لكي لا تؤخذ ضده عند التقويم.

خامساً: خطأ طول الخدمة: يميل بعض المقوِّمين لأداء موظفيهم إلى هذه النزعة وهي الإعتقاد بأن طول الخدمة أو الأقدمية في العمل معناها التميز مفترضين أن قدامى الموظفين يؤدون خدماتهم ووظائفهم على خير ما يرام لمجرد طول خبرتهم. ومثل هذا الإعتقاد من المدير قد يعطي الموظف القديم صورة من الأمان الوظيفي مع أن أداءه قد انخفض أو تردّى بسبب عدم تطوره وإطلاعه على المعلومات الحديثة والتقنيات الجديدة التي قد تستحدث في وظيفته.

سادساً: نزعة اللين أو التساهل: وهي من الأخطاء الشائعة في عملية تقويم الأداء الوظيفي حيث يميل بعض المقومين إلى التساهل جداً في التقويم تجنباً للمواجهة والنزاع. وبهذا يعمدون إلى اعطاء درجات متوسطة أو فوق المتوسطة أو عالية ويبررون ذلك بإعتمادهم على النقاط الإيجابية فقط في أداء موظفيهم وإنتاجيتهم.

سابعاً: نزعة التشدد: وهناك فئة من المديرين والمشرفين الذين يعتقدون أنه لا يوجد موظف على الإطلاق يكون باستطاعته أداء المطلوب منه على أفضل وجه وحسب المعايير التي يضعونها، ذلك لأنهم غالباً ما يضعون لموظفيهم معايير ومقاييس غير واقعية، وأهداف غير ممكنة التحقيق، وغايات صعبة المنال. ومثل هؤلاء المقومين من النادر أن نجد في سجلات تقويماتهم درجات مثل «متميز» أو «ممتاز» أو حتى «جيد جداً».

ثامناً: النزعة إلى المنافسة: هناك فئة من المديرين يتصفون بصفة المنافسة مع موظفيهم، وهم غالباً غير قادرين على الفصل بين أدائهم الوظيفي وأداء موظفيهم العاملين تحت إشرافهم، وعادة ما يبرر هؤلاء المديرين تصرفاتهم بالقول أن أي موظف من موظفيهم لا يمكنه الحصول على تقدير أعلى مما حصلوا عليه هم أنفسهم من رؤسائهم المباشرين. فلو حصل أحدهم على تقدير «متوسط»، فإنه يعكس هذا بدوره على موظفيه، والأدهى من ذلك أن يعتقد أن فشله في الحصول على تقدير أعلى كان بسبب موظفيه.

إن بعض الناس قد يكون لديهم نوع من التحيز والتحامل والمحاباة بدرجات تتفاوت من شخص لآخر، ومرد ذلك عوامل إجتماعية وبيئية عديدة تتكون معظمها في

مرحلـة سابقـة من حياة الأفـراد. لكن من الأهمية أن يتعرف هـؤلاء الأشخاص الذين يحتلـون مراكـز قيـادية وإشرافيـه تخولهم تقـويم الآخـرين، إلى تحيـزهم الشخصي للحـد منه وتقليص تأثيره على تقـويم الأداء للموظفين التـابعين لهم. وكما قيل قديماً، معرفـة المشكلة هي نصـف الجواب . لذا، أقترح ما يلي لمعالجة الأخطـاء الشائعة في تقويم الأداء.

معالجة أخطاء تقويم الأداء

إن معـالجة فشل عمليـــة تقـويم الأداء في المقـــام الأول يقع على عـاتق المديـــرين والمشرفين الـذين يقـومون بتنفيـذ هـذه العملية. ولابـد من وجـود الرغبـة الأكيدة والصـادقـة مـن الإدارة العليـا لإيجاد حل جـذري للمشكلة خـاصـة إذا تفاقم الأمـر وكثـــرت الشكـــــاوى والتظلمات من الموظفين. وهنــــا بعـض الإقتراحـــات والتوصيات أضعها بين يدي الخبراء في هذا الشأن ممن لهم إهتمام بشؤون الأفراد، كما أضعهـا بين يــدي المديـرين والمشرفين الممارسين من واقع تجاربهم الشخصيـــة، وكلي أمل في أن تلقى القبـــول والتعـديل والمناقشة البناءة التي تصل بنا في النهاية إلى تقويم عادل :

* التعـرف على طبيعة المشكلـة وحجمهـا وتحديدها بوضوح.
* القيـام بمعالجة الخطـأ الشائع إذا كـان كامناً في المقوِّم وإخلاص النية في ذلك.
* القيام بإعطاء دورات مكثفة ومخصصة في تقـويم الأداء لحديثي العهـد بـالمنـاصب القياديـة والإدارية، وللقـدامى أيضاً بهدف تقديم أفضل وأحدث ما توصل إليه العلم في هـذا الموضوع «طلب العلم من المهـد إلى اللحد».
* الحصول على مساندة ودعم الإدارة العليا لمثل هذه البرامج والدورات.
* عدم الإعتماد على طريقة واحدة في تقويم الأداء، فالتنوع مرغوب وضروري.
* إشراك الـرؤساء والمرؤوسين والـزمـلاء وحتى الزبائن والمراجعين في عملية تقويم الأداء والإستئناس بآرائهم جميعاً.
* اختيار وابتكار نماذج خـاصة بالمنشأة أو القسم لتقـويم الأداء لعـدم استيراد نماذج جاهزة ومسبقة الصنع.
* اختيـار الصفـات والـوقـائع الحرجـة والممارسـات موضع التقـويم يجب أن تتم بمعرفة القائمين بالتقويم.
* منع أي جهات خارجيـة من التدخل في عملية تقويم الأداء.
* شرح عملية تقويم الأداء للموظفين حتى لايفاجأوا.
* إحـاطـة كل مشترك في عمليـة تقـويم الأداء بنتائجها.
* استشعـار مراقبـة الله سبحـانه وتعـالى للمقوِّم فيعـدل ولا يظلم، ويعطي ولا يمنع، ويـــزيـد ولا ينقص، ويخاف الله في هـــذه المسؤولية الملقاة على عاتقه.

تعـرضنا في هـذه المقـالة لموضـوع على درجة كبيرة من الأهميـة في مجال شؤون الأفراد ألا وهـو : تقويم الأداء الـوظيفي في المنشآت العـامة والخاصة وأسبـاب فشله. ومـا من شك في أن أي مـوظف هو طـرف أسـاس في العملية فإمـا أن يكون مـوضع التقـويم كالموظف الـذي يُقَوَّم من رئيسـه ومديره، وإما أن يكـون الشخص الذي يقوم بعمليـة تقويم الأداء فيقـوِّم مثل المديـر أو القائد أو المسؤول.

وتطـرقنـا إلى أهداف عمليـة تقـويم الأداء وكيف أنها تهدف إلى خـدمـــة الموظف والإدارة على حد سـواء ثم تعرضنـا إلى من يقـوم بعمليـة تقويم الأداء، وبيَّنـا الجهـات المسؤولة التي تستطيع إنجاز هذه المهمة. ثم عددنا بإختصار بعض الأساليب الحديثة في تقـويم الأداء تمارس حـــالياً من قبل معظم المنشـآت والشركـات الخاصـة في المملكـة العربيـة السعـودية. وبعـد ذلك، وضحنـا بشيء من التفصيل أهم الأسبـاب التي قد تؤدي إلى فشل عملية تقويم الأداء. وبعـد ذلك، أوردنـا مـا نراه عـلاجـاً لهذه الأسباب، آملين أن تـؤخذ مأخـذ الجد من قبل المسؤولين.

وختـاماً، أود أن أتعـرض لحادثـة تاريخيـة مهمـة تـوضح بما لايـدع مجالاً للشك بأن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عرف أهمية اختيار الموظف وتقويم أدائه قبل ١٥ قرناً. وهاك الحادثة التي تسجلها كثير من كتب التراث العربي الإسـلامي ومفـادها أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سأل المسلمين من حوله: « أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل، أكنت قضيت ما عليَّ ؟ قالـوا نعم . قال: لا ، حتـى أنظر في عمله، أعَمل بما أمرته أم لا ؟ ».

وبهذه الجَملة النظـرية والممارسـة العملية يمكننـا القـول بأنه كـان من أوائل الـرواد وقـدمائهم ممن وضعـوا القواعـد الرئيسـة لقياس الأداء وتقويم العمل، وكان له قصب السبق في هذا الميدان الحيوي المهم في شؤون الأفراد.

كما نستخلص من هـذه الحادثة التـاريخية أهمية اختيـار أقدر الموظفين على القيـام بالمهمات العامة مع مراقبتهم ومحاسبتهم ومســـاءلتهم عـن كل صغيرة وكبيرة في حقوق الوظيفـة ثم مكافأتهم إن خيراً فخير ومجازاتهم إن شراً فشر، لقد كانـت طريقة عمـر رضي الله عنه في تقـويم أداء عمَّالـه ومـوظفيـه قـائمة على أسـاس المتـابعـة والمحاسبـة على كل شيء يرتكبـه العامل مع إخبـاره سلفـاً أن أمير المؤمنين سـوف يسأله ويحاسبه في كل عام. وقد كان رضي الله عنـه يستغل فـرصة حضـور المسلمين ووجـودهم في مـوسـم الحج من كل عـام ليقوم بهذه العمليـة الإدارية وإتخاذ القـرار المناسب على مسمع ومرأى من الجميع ■

المراجع

١- «تقـــويم أداء الموظفين في بعض المنشـــآت السعودية بين النظريـة والتطبيق» د. محمد عبد الله البرعي ود. غـازي حبيب (المجلة العـربية لـلإدارة) المجلـــد ١١، العـــدد ١، شتـــاء ١٩٨٧ . ص ص ٤٨-٦٣.

٢- أخبـار عمر وعبـد الله بن عمر. على الطنطـاوي ونــاجي الطنطـاوي . بيروت: المكتب الإسـلامي ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م.

3. Terry R. Lowe, "Eight ways to Run Performance Review. Personnel Journal, January 1986, PP. 60-62.

4. Stephen P. Rabbins, Personnel: The Management of Human Resources. 2nd. Ed. Englewood Cliffs, N. J., 1982.

٥- «كشف الخفـاء ومزيـل الإلباس عما اشتهـر من الأحاديث على ألسنة النـاس» لإسماعيل ابن محمد العجلـوني، تصحيح وتعليق أحمد القلاش. جـزءان، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م.

المواد الحيوية

بقلم الأستاذ: محمد عودة جمعة - الأردن

فتحت تقانة الاعضاء الاصطناعية ابواب عصر جديد في عالم الطب، فخلال جيل واحد تطورت الاعضاء الاصطناعية من كونها بدائل مؤقتة تستخدم في حالات الطوارىء لتصبح اجهزة تعمل على المدى الطويل، وهناك اليوم ما لا يقل عن ٣ ملايين شخص يعيشون باعضاء أو اجهزة اصطناعية مزروعة في اجسامهم مثل صمامات القلب والقساطر والمديلزات الكلوية ومفاصل الاوراك الاصطناعية والاجزاء الاصطناعية للأذن الوسطى والعدسات اللاصقة والانغراسات داخل مقلة العين وتحويلات الشرايين والأوردة والجلد الاصطناعي.

ويطلق على المواد التي تدخل في تركيب وصناعة الاعضاء الاصطناعية اسم المواد الحيوية نظرا لكونها في معظم الاستعمالات على اتصال مباشر بالاجهزة والانسجة الحية، وتشمل هذه المواد السبائك الفلزية مثل التيتانيوم والكروم والخزفيات واللدائن (البوليمرات) مثل التفلون والداكرون والبوليستر.

من الضروري أن تتوافر في هذه المواد خصائص معينة تلائم مع وظيفة العضو الاصطناعي، بحيث تستثير أقل حد ممكن من ردود فعل الجسم، فمن المعروف أن جسم الانسان يرد بسرعة فائقة ومعادية على أية مادة غريبة تزرع فيه، هذا من جانب، ومن جانب أخر فإن المواد المعمرة والمقاومة لتأثيرات التآكل الناجمة عن سوائل الجسم البشري قليلة، كما أن كثيرا منها يمكن أن يطلق تفاعلات حيوية كيميائية أو مناعية معاكسة تعتمد على كثير من التغيرات بما في ذلك كيمياء سطح المادة المزروعة وكيمياء الدم أو النسيج الذي سيلامسها، وشكل الجهاز التركيبي، والعناية التي يتم بها الزرع جراحيا في الجسم.

ومن الطبيعي ان يتجنب الباحثون عند اختيارهم للمواد الحيوية جميع المواد المسببة للسرطان أو تلك التي تسبب ردود فعل الحساسية أو المدمرة للنسيج المجاور، مثل الرصاص أو الاسبستوس، بالاضافة إلى هذا فان المواد التي يصعب صنعها وتنقيتها أو تطهيرها لن تكون ابدا مواد مفيدة في عمليات الزرع الناجحة، فالمواد الحيوية يجب أن تقوم بالمهام المطلوبه منها على وجه الخصوص، فمن البديهي أن تكون خواص المادة الحيوية المستعملة في العدسات اللاصقة مختلفة اختلافا جوهريا عن تلك المستعمله لمفصل الورك، فعدسات العين الداخلية يجب أن تكون شفافة، وصفائح العظام قاسية، والاوراك الاصطناعية قادرة علي تحمل الضغوط الهائلة.



ركبة اصطناعية من البلاستيك وقد ركبت على عظام بشرية حقيقية. وتجرى هذه العملية غالبا للمرضى الذين يعانون من امراض الروماتيزم.

وقـد بدأت مـراكـز الابحـاث العالميـة حديثـا في اعداد دراسة مـوضوعيـة دقيقة *لطبيعة المواد الحيوية*، وستقود حتما إلى صياغة معايير دوليه والى وضع تعريف دقيق للخصائص التي يلـزم أن تحتفظ بها المواد الحيويـة، وسوف يكون الهدف النهـائى هو إدخال تنظيمات مماثلة لتلك التي تحكم تسويق العقاقير. ومما يجدر ذكره ان اختبار طبيعة المادة الحيوية معقد للغاية لانه يتطلـب من المختـص أن يحاول في اثناء اختبـارات التقويم تعيين مـا هو مناسـب لنوعية المادة ومـا عسى أن يعزى إلى تحليل المادة الـذى يسبق اجراء العملية الجراحيـة، وسواء كان اختصـاصه في الفخـاريـات أو المواد المركبة أو المعـادن أو البوليمـرات، فان هذا المختص يجب أن يكون ملماً بالمشكلات البيـولوجية، ويقتضي أن يضع في الاعتبـار ميكـانيكيـات تجلط الـدم، والاستجـابة المنـاعية في حـالة البـدائل الاصطناعيـة لأوعية القلب، بالاضـافة إلى احاطته بالطبيعة الوظيفية للعظم في حالة المواد الحيويـة المستخدمـة في الجراحة التقويمية للعظـام، وأن يكون متخصصاً في العين ومكـونـاتها في حـالات استعمال العـدسات الـلاصقة اللينـة، وذا خبرة في *المستنبتـات الخلـويـة* للمـواد الحيـويـة المستعملة كدعائم للخلايا.

وتبقى المعـادن والمواد البلاستيكيـة هي المواد الاكثر شيوعا في زراعة الاعضاء الاصطنـاعية، فهـذه المواد قـوية ومعمـرة وتميل إلى استثارة الحدود الدنيا من ردود فعل الجسم، ولقد استخدم الجراحون منذ الثـلاثينـات من هـذا القـرن الـدبـابيس والبراغي والصفائح المعدنية لترميم العظام المكسـورة والمحطمـة، ثـم بـدأوا خـلال الحرب العـالمية الثـانية بـزرع العدسـات البلاستيكية في *عيون المرضى*، وقد اثبتت المواد غير المعمرة عدم فعاليتها في مجال زراعـة الاعضاء الاصطنـاعيـة، فعلى سبيل المثال تضاعفت الجهود لصنع أوعية دموية من النايلون ، ولكن البـاحثين اكتشفوا أنه يتلف بسرعة داخل الجسم البشري.

وتلعب البوليمرات دورا متزايد الاهمية في الجهـود المبـذولـة لتحسين عمل الاعضاء الاصطنـاعية المزروعـة، وكثيرا ما تكـون البـوليمـرات مـوجـودة في أواني المطبخ والالبسة الرخيصـة وفي مواد مثل التفلون والداكرون والبوليستر، وقد وجدت لها استعمالات تتراوح بين الطبقـات الخارجية جـدا للجلد وبين اعمـق فجوات القلب، وتوفـر البوليمـرات للباحثين مجالاً التنـوع والتعـدديـة، إذ انهم يستطيعـون الاختيـار من بين تنـوع كبير من المواد المتوافـرة وتصنيعها بـاشكال متبـاينة في الشكل والملمس، وتعديل المواد كيميـائيا أو بيوكيميائيا لتحفيز ردود فعل محددة.

وقد استخدمت البـوليمرات كذلك في الجلد الاصطنـاعى ورقع الجلد التـي تفرز جرعات محددة من الدواء ويستخدم العلماء الآن البوليمرات لصنع اجهـزة عامة للدواء قابلة للـزرع في الجسم البشري يمكنها أن تخدم كأعضاء اصطناعية مجهرية.

وفي مجال جـراحة العظـام التقويميـة كما هو الحال في مفصل الـورك، اصبحت



تستخدم هذه الكرة المعدنية في ايصال الفخذ مع الورك ، وعادة ما تجرى هذه العملية للكبار في السن الذين يعانون من بعض *امراض الـروماتيزم* المختلفة.

رجـل اصطناعيـة .



عملية قلب مفتوح توضح عملية استبدال احد صمامات القلب الطبيعي باخر اصطناعي «على يمين الصورة» مصنوع من الغشاء المغلف للدماغ والحبل الشوكي لأحد الحيوانات.

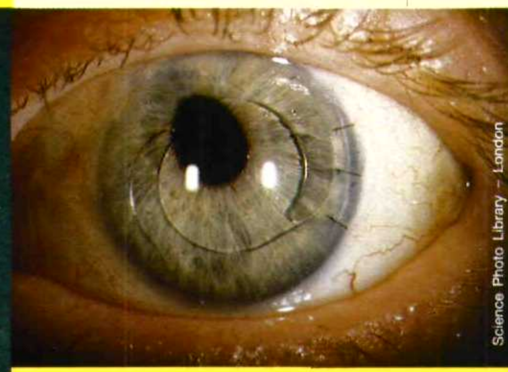
السبائك الفلزية والبوليمرات من اكثر المواد المستعملة، حيث تستعمل الأولى لعمل القصبة المغروسة في عظم الفخذ، أما الثانية فتستعمل لتشكيل رأس عظم الفخذ والتجويف الحُقّي له، وهناك نوعان من البدائل الاصطناعية لهذه الاعضاء، النوع الاول الذي لا يتطلب لصقا لقصبة عظم الفخذ، أما النوع الثاني فهو فيستلزم التثبيت في موضعه، وهو عادة مكون من بوليمر (مثل البولي ميثيل ميتاكريلات) أما السبائك الفلزية المستعملة فهي من الفولاذ الذي لا يصدأ (الستينلس ستيل) المتعدد الانواع التي اساسها التيتانيوم والكروم والمولبدنيوم أو النيكل، وكذلك سبائك التيتانيوم والالمنيوم، وهذه المواد يتحكم فيها بدقة لكي تعطي الخصائص الميكانيكية المطلوبة من حيث المرونة ومقاومة الثني والشد والكثافة، ويتعرض العضو الاصطناعي للسحب والانضغاط أو اجهادات القص معتمدا على وزن جسم المريض ومدى حركات جسمه، أما التأثيرات على وصلة التقاء العضو الاصطناعي مع العظم فتعتمد على هذه الاجهادات وينجم عنها تكون طبقة ليفية تتفاوت في كثافتها، وتوضع المواد الحيوية المستعملة تحت اختبارات قاسية لتقييم مدى تواؤمها الحيوي، خاصة فيما يتعلق بقابلية توليد الخلايا السرطانية وحالات التسمم الخلوي وامكان تهيج الجلد باللمس.

وللبوليمرات استعمالات متعددة في الجراحة التقويمية للعظام، فهي تستعمل إما لتثبيت العضو الاصطناعي في مكانه، أو كأربطة اصطناعية، ورؤوس لعظم الفخذ، وتجاويف حقية له، وتكون عادة من متعدد الايثيلينات ومتعدد رباعي الفلور ايثيلين (التفلون) ومتعدد ميثيل الميتاكريلات ومتعدد البروبلين، وعلى نقيض السبائك الفلزية التي قد تتآكل، فان البوليمرات خاملة كيميائيا إلى درجة مطمئنة، وعلى الرغم من ذلك فانها قابلة للتعرض داخل الجسم إلى التجزئة بالانزيمات، بالاضافة إلى أن مقاومتها للبلى ضعيفة.

وللحصول على الشكل الهندسي الامثل للعضو الاصطناعي، يبدأ الجراح في إعادة تشكيل التجويف الداخلي لعظم الفخذ باجراء الحسابات على الحاسوب بالاستعانة بالمعطيات التي يحصل عليها من المقاطع العرضية المصورة اشعاعيا للمريض المعالج، ولحسن الحظ فان العظم يكون اكثر تحملا من الانسجة اللينة، كما أن اغلب المواد المستعملة في جراحة العظام التقويمية هي مواد مصممة في البدء لتطبيقات مختلفة تماما، فالمهمة الرئيسة هي أن نختار من السبائك الفلزية والبوليمرات المتنوعة تلك التي تفي بالغرض المطلوب وتتصف بالمواءمة الحيوية.

وعلى الرغم من هذا، فما يزال أمام الباحثين الكثير مما يمكن احرازه، فاحلال الاربطة باستخدام البدائل الاصطناعية للاعضاء، واتصال تلك البدائل الاصطناعية بالنسيج العضلي لايزال يضع أمام العلماء الكثير من المشكلات التي يتطلب حلها البراعة والحذر، ويجري بذل المحاولات لحلها عن طريق تطوير مواد جديدة، وفي بعض هذه المحاولات استخدام خزف فوسفات الكالسيوم لحفز شفاء العظام وتقوية المفاصل والعظام الاصطناعية، والبحث جار عن طرق جديدة لغرس الاربطة الاصطناعية، كذلك تجري دراسات تفصيلية عن تآكل الاربطة نتيجة الاجهاد. وكما تطرق البحث ايضا إلى دراسة طبيعة الانسجة حول البدائل الاصطناعية للاعضاء، وعن التلف التدريجي لانسجة العظم حول المسامير اللولبية التي تعمل على تثبيت الاربطة الاصطناعية في أمكنتها، وتتركز الدراسات في الوقت الحاضر على أربع من المواد الحيوية: مواد اساسها البوليمرات مثل متعدد الاميدات ومتعدد رباعي الفلورو ايثيلين ومتعدد الاسترات، ومواد الياف الكربون، والاربطة المصنوعة من مواد مركبة من بوليمرات متنوعة أو من الكربون والبوليمر، واربطة اساسها منتوجات طبيعية معاملة كيميائيا.

أما في مجال العدسات اللاصقة، فأن



عدسة اصطناعية وقد تم تركيبها خلال عملية جراحية ترقيعية على عيون احد المرضى.



اذن انسان اصطناعية تستخدم في الجراحة التجميلية .

المواد التي تتكون منها هذه العدسة تكون على تماس مباشر مع انسجة العين والسائل الدمعي، وتحتوي علي الكثير من البروتينات، وتستعمل البوليمرات في صناعة العدسات اللاصقة اللينة وتكون مشربة مثل الاسفنج بكمية كبيرة من الماء، وهذه البوليمرات من فصيلة متعدد الميتاكريلات، ويساعد البلى المستمر للعدسات اللاصقة البروتينات المحتواة على تكوين راسب على سطح العدسات مما يجعلها أقل جودة في وظائفها، وكثير من الدراسات على طبيعة هذه الرواسب وعلى آلية التفاعلات الدمعية المسؤولة عنها هي الآن قيد البحث والتطوير.

أما فيما يتعلق باستعمال البوليمرات في التطبيقات المتلامسة على الدم، فان أول البوليمرات المصنعة لمثل هذه الاستعمالات، كان لها خواص مرغوبة من النواحي الكيميائية والفيزيائية والميكانيكية، إلا إنها لم تكن خاملة بالنسبة للدم، فالتفاعلات البينية بين جزئيات وخلايا الدم وبين خلايا تلك المواد تؤدي إلى تكوين تجلطات في الدم . فالدم نسيج معقد جدا يتكون من خلايا وبروتينات واملاح معدنية، ويطرأ عليها تغيرات إذا ما تماست مع مادة حيوية، وتمتص البروتينات على سطوح جدران المادة الحيوية ويتغير شكلها أو تفقد نشاطها الحيوي أو تتحول إلى بروتين خاص مولد للفبرين ثم إلى شبكة ثلاثية الابعاد تسمى جلطة صفيحة الفبرين، وهذا التتابع من التغيرات الذي يؤدى إلى تجلط الدم يتم بطريقة سريعة، إذ تتكون الجلطة في مدى ثلاث دقائق إذا ما وضعت بلازما الدم في انبوبة زجاجية، وتأخذ زمنا اطول إذا كانت الانبوبة مصنوعة من البوليمر ولكنها لا تتجاوز عشر دقائق.

ومنذ عام ١٩٦٣م ركزت الأبحاث التقنية على إعداد مواد مشتقة من البوليمرات المثبطة للتجلط وذلك بتثبيت موانع التجلط على سطح البوليمر المماس للدم، فالهبارين وهو المركب الطبيعي المستخلص من الانسجة الضامة للبقر هو أحد موانع التجلط الاكثر استعمالا، وبدمج الهبارين مع مواد معينة، فانه يتحرر تدريجيا عندما تكون المادة في تماس مباشر مع الدم، وبذلك يمنع تجلط الدم فوق سطح المادة، وهذا الاجراء اتاح إعداد نمط جديد من القساطر المتداول استعمالها حاليا.

وبالرغم من كل ما تحقق من تقدم، فان ميدان المواد الحيوية ما يزال في بدايته. ومن بين الإنجازات الجديدة التي يتوقعها العلماء فى مجال المواد الحيوية تطعيم العظام بدون جراحة وزراعة الادوية المضادة للسرطان، ولقد بدأ الباحثون فعلا بتجربة حقن الخزف النشط حيويا مباشرة في العظام المصابة لتوليد نسيج جديد من دون تطعيم جراحي، وقد يستطيع المرضى الذين يعانون الاورام الدماغية مثل مرض باركنسون ومرض الزهيمر أن يُعالجوا يوما ما بدواء تطلقة صفائح رقيقة من البوليمرات المزروعه مباشرة في الدماغ . ومما لا شك فيه أن نجاح العلماء ، في تطوير هذه المواد سوف يجعل مثل هذا التقدم ممكنا، ويمكنهم بالتالي من السيطرة على مجال اكثر تحديا للانسان حتى من الفضاء الخارجي، الا وهو جسم الانسان نفسه ■

المراجع

1 - Resorbable Materials and Composites: New Concepts in orthopedic biomaterials. J. Russel Parsons in Orthopedics, Vol. 8, No. 7, Pages 907 - 915, July, 1985.

2 - Principles of Burn Dressings., K. J. Quinn, J.M. Courteny and W. H. Reid in Biomaterials, Vol. 6, No. 6, Pages 369-377, November, 1985.

3 - Mechanical Properties of Biological Polymers., A. Hiltner, J. J. Cassidy and Eric Baer in Annual Review of Material Science, Vol. 17, Pages 455-482, 1987.

النقد الأدبي والمعضلة الأفلاطونية

بقلم : د. صبري حافظ - لندن

تطرح مجموعة المقاربات المنهجية الجديدة التي فتحت وعي النقد الأدبي على مجموعة كبيرة من آليات عمليتي الابداع والتأويل القصصيين على السواء عددا من الاسئلة الجوهرية على دارس الخطاب الروائي العربي . وهي اسئلة لا تتناول منهجية البحث ولا طريقة تناول الاعمال الروائية وحدها ، بل تتجاوزها الى طبيعة العلاقة الشائكة بين هذه النصوص والواقع الذي صدرت عنه ، والى ضرورة تمحيص الادوات المنهجية والمصادرات القديمة التي كانت تنطلق منها عملية البحث المعرفي ذاتها .

لقد تبلورت هذه المقاربات في سياق مجموعة من التغيرات الشاملة التي انتابت مناهج البحث في الانسانيات والعلوم الاجتماعية ، وبدلت استقصاءاتها الجديدة طريقة تعاملنا مع الادب والواقع على السواء . فبعد ان استكانت الانسانيات والعلوم الاجتماعية لفترة طويلة لدعة الثقة في المناهج التي تبلورها العلوم الطبيعية طوال القرن الماضي حتى العقود الاولى من هذا القرن ، بدأت تنفض عن نفسها هذا الكسل القديم وتطرح اسئلة مقلقة حول جدوى هذا المسار . وقد استلهمت النظرية الادبية هذه الصحوة المنهجية واخذت تشق لنفسها طريقا مغايرا يستقي مرجعياته الاساس من دراسة حركية الظاهرة الادبية والتعرف الى تحولاتها الداخلية ، وليس من محاكاة ما استخلصته الحقول المعرفية الاخرى وتطبيقه على الادب مع ادخال التحويرات اللازمة عليه . ويجعل من الاهتمام بالعناصر النصية ، وطريقة تقديمها ، وصيغ تشكلاتها في العمل الادبي مجال اهتمامه الاول ، وسبيله الاساس للوصول الى اي استقصاءات نظرية تبرز كشوفها من خلال الظاهرة الادبية نفسها ، وليس باللجوء الى مرجعيات غريبة عليها . ولم يتحقق لها ذلك الا من خلال تمحيصها الدقيق للتصورات النقدية القديمة حول الادب ووظيفته الانسانية ودوره الاجتماعي . ولان هذه الدراسة تسعى الى التعرف الى التحولات التي انتابت الخطاب الروائي العربي نتيجة لتغير الحساسية الادبية فانها تستخدم في سعيها ذاك كشوف النظرية النقدية الحديثة ومقارباتها المنهجية الجديدة .

فغاية النظرية الادبية الحديثة لدى مؤسسي اضافاتها الجوهرية على مدى تطورها المعاصر هي ارهاف وعي الادب بذاته حتى يمكن الاعتداد باستقصاءاته الانسانية والاجتماعية حول أي شيء خارجه . وكأنها تعود من جديد الى تطبيق المقولة السقراطية « أعرف نفسك » على كل شيء فيه ، بما في ذلك موضوع بحثها نفسه .

فمركزية النص في النظرية النقدية الحديثة لم تتحقق ، كما يشاع عنها ، على حساب مركزية الانسان في النظريات السابقة ، ولا حتى على حساب فصم عرى علاقة هذه النصوص مع الواقع ، وانما من خلال ارهافها بمنهج مغاير لتلك المركزية وهذه العلاقة . لان هذه النظرية النقدية او الادبية الحديثة التي بدأت اضافاتها النظرية مع التحول الكبير في النظرية الى اللغة على ايدي فرديناند دي سوسور في العقد الاول من هذا القرن ، ثم تواصلت مع كشوف الشكليين الروس واعمال ميخائيل باختين المبهرة في العشرينات ، وانجازات مدرسة براغ النقدية واستقصاءات مدرسة كيمبريدج الانجليزية ومدرسة فرانكفورت الالمانية في الثلاثينات ، وكشوف لوكاتش ومدرسة جنيف ومدرسة النقد الجديد الامريكية في الاربعينات ، وجهود جريماس وبارت وجولدمان والبنيويين الفرنسيين في الخمسينات ، وصولا الى استقصاءات التفكيكيين ، ومدرسة جامعة ييل الامريكية في الستينات ، ومحاولات ما بعد البنيوية في السبعينات والثمانينات [1] ، هذه النظرية النقدية اذا ما اخذت على انها نشاط كلي متكامل ودائم التحول تنطوي برغم اهتمامها البالغ بما سماه

رولان بارت [٢] بمسئولية الصيغ أو الاشكال الادبية Responsibility of forms على مجموعة من الرؤى والقيم الانسانية التي تشكل مفهوما كاملا للانسان ومنظومة متكاملة من التصورات المتعلقة بالقيم الاخلاقية والفلسفية بالمعنى التقليدي والانساني القديم لهذا المصطلح . لأن جوهر التغير الذي انتاب الخطاب النقدي في هذا القرن وجه جل عنايته الى منهجية التناول النقدي والطريقة التي يتعامل بها مع النص الادبي ومداخل هذا التناول ، اكثر مما انتاب التعليلات والتبريرات الفكرية والفلسفية للعملية النقدية ، وبالتالي للعملية الابداعية ذاتها .

لكن هذا التحول الذي يتجلى في التركيز على المقاربات المنهجية لتفسير علاقة النص الادبي المعقدة بكل اطرها المرجعية ينطوي في اجوبته على كل اسئلة الادب المعرفية والفلسفية والانسانية ، وتصوراته المهمة عنها . كما ينطوي على العلاقة المهمة والجوهرية بين استقصاءات النظرية الادبية الجديدة والواقع كمفهوم فلسفي مركب بالدرجة الاولى . فتناول العلاقة الخاصة بين الادب والواقع لابد أن يأخذ في اعتباره اننا نتعامل مع مجال نوعي محدد ، تختلف طبيعة تناوله لتلك القضية الحساسة عن تناول العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المباشر لها . فكل نشاط انساني مهما بلغت درجة تخصصه او انشغاله بهمومه النوعية المحددة ينطوي على مجموعة من المصادرات المهمة والفلسفية حول الانسان ، وبالتالي على فهم معين لعلاقته بالواقع الذي يتعامل معه ، ويصدر عنه ، ويسعى الى الفاعلية فيه . ولا يمكن لنا سبر طبيعة التغيرات التي انتابت موقف الادب والتنظير له من الواقع دون تمحيص تلك المصادرات الفاعلة وغير المعلنة عادة فيه . وحتى تكشف هذه الدراسة عن طبيعة هذه التغيرات في مجال استقصاء النظرية الادبية لطبيعة العلاقة بين النص الادبي والواقع الذي يتعامل معه ، عليها ان تتعرف بداءة الى كيفية حفاظ تجليات الردود النظرية المختلفة على المعضلة الافلاطونية على مجموعة من المصادرات التي عرقلت صياغة فهم ادبي متميز لهذه العلاقة البالغة التعقيد . فالتعرف الى اداة البحث النقدي وما انتابها من تغير هو المهاد الضروري لاي دراسة جادة لتغير الحساسية الادبية وتحولات الخطاب الروائي التي استهدفت استيعاب تلك التغيرات والتعبير عنها .

فالتغيرات التي انتابت النقد الادبي في تعامله مع الظاهرة الادبية نظريا وتطبيقيا ، وفي صياغة العلاقة بين تحولات النص الادبي الداخلية وتحولات الواقع الاجتماعي الذى يصدر عنه ويتعامل مع متغيراته ، ويسعى الى الاضطلاع بدور مهم فيه ، على أسس جديدة تضرب بجذورها في ارض الاشكاليات النقدية المزمنة التى بلورتها مسيرة السعي النقدي الى حل ما دعاه ديفيد ديتشيز بالمعضلة الافلاطونية . وهي تلك المعضلة التي استأثر الرد المباشر او غير المباشر عليها بالكثير من دفاعات النقاد عن الشعر خاصة ، والادب بصفة عامة ، منذ ان اقام افلاطون جمهوريته الاخلاقية ، ونفى منها الشعراء ، وشكك في مصداقيتهم ، وفي قدرتهم على نقل رؤاها المثالية الى القراء ، فقد كان مفهوم افلاطون للأدب أو بالاحرى للشعر ، اذ كان الشعر في المراحل الاولى من تطور النظرية النقدية هو الممثل الاكبر للأدب او البديل الدائم عنه ، جزءا لا يتجزء من تصوره المعرفي او الابستمولوجي للعالم . لان « اعتراض افلاطون على الشعر اعتراض ابستمولوجي منحدر من نظريته في *المعرفة . فاذا كانت الحقيقة تتكون حقا من* المثل التي ليست الاشياء الا انعكاسا او محاكاة لها ، فمعنى ذلك ان كل من يحاكي هذه الاشياء ، انما يحاكي ما هو محاكاة ، وهكذا ينتج شيئا يكون شديد البعد عن الحقيقة المطلقة [٣] » وقد صاغ افلاطون اعتراضاته على الفن في ثلاث نقاط اساسية : اولاها انه محاكاة لمحاكاة ، يجهل صاحبها الاستعمال الصحيح للشيء الذى يحاكيه وطبيعته . وقد انصب الجدل في هذا الاعتراض لامد طويل لا على رفض مسألة المحاكاة نفسها ، وانما على التسليم بها ثم الدفاع عن قدرة الفن على الاضطلاع بها ، وعلى معرفة الفنان الحقة بما يحاكيه . وثانيتها انها محاكاة تستغل قسما وضيعا من الملكات الانسانية من اجل ارضاء الجمهور ، ومن هنا فانها لا تعالج الحقائق الاساسية للاشياء باتزان وهدوء وحكمة ، بل تعالج مظاهرها السطحية بنزق . اما ثالثتها فهي ان الشعر يقيت العواطف ويرويها بدلا من ان يصيبها بالجفاف ، وفي هذا الاعتراض تصور افلاطوني واضح يزري بالعاطفة لحساب العقل الذى يشكمها بالتروي والحكمة . كل هذه الاعتراضات الثلاثة مرتبطة بان الشاعر لايصدر عن عالم المثل ، أو عن عالم الواقع ، وانما عن الخيال الذى تلهمه به عرائس الشعر . وقد كان على النقد ان ينتظر قرونا عديدة حتى يرفع الرومانسيون هذا الغبن الذى وقع على العاطفة وعلى عرائس الشعر . ثم يأتي بعدهم الاجتماعيون ليمنحوا صلابة عالم الواقع الصدارة على عالم المثال الافلاطوني الهش .

منذ ذلك التاريخ البعيد ومنظرو الادب يحاولون الدفاع عنه ازاء تلك الاتهامات الافلاطونية الجائرة . فبرره ارسطو بانه لايعبر عن الواقعي او المتعين وانما عن الممكن والمحتمل وفقا لقوانين الضرورة والاحتمال ، ومن هنا كان الادب اكثر فلسفية من التاريخ لانه يعبر عن الانساني والعام من خلال *الفردي والخاص* . فعلى الشاعر عنده ان يفضل المستحيلات المحتملة والمقنعة ، على الوقائع الممكنة غير المحتملة وغير المقنعة . لان المحتمل غير الممكن قد يعكس من خلال منطق

احتماليتـه ، وانطواء هـذا المنطق على اسباب وجوده ، حقيقة اعمق من تلك التى يقـدمها الممكن غير المحتمل . وجعل ارسطو من البنية العضوية للعمل الادبي بتراكيبها وتعقيدها وانطلاقها من الخلق الابداعي مصدرا للكشف عما هو جوهري في الواقع والمعرفة على السواء ، رابطا بين الفن كشكل والفن كمعرفة . كما قدم من خلال النظام النسقي المحكم لفنون الشعر عنصرا آخر ينفي اعتباطية الايحاء ودور عرائس الشعر العشوائى عند افلاطون ، ويقيم العمل الادبي على اسس معرفية ونسقية خالصة ، كاشفا عن تبدي الحقيقة من خلال البناء قبل تجليها في الموضوع ذاته . لان لجوء ارسطو الى ايضاح العمل الادبي عن طريق التصنيف ، وبحثه في اسس كل نوع فني وخصائصه ، وضع الرد على اعتراضات افلاطون على مسار جديد يكتشف وظيفة الادب ويبرر دوره من خلال التعرف الى ماهيته واكتشاف آليات عمله الداخلية . ويجعل من مسألة البحث في خصائصه افضل رد على اعتراضات الرافضين له . حيث يضع الادراك الخيالي للحقيقة في مرتبة اعلى من المعرفة العملية والصدق الحرفي الذي فضله افلاطون من خلال تصنيفه للصانع في مكانة ارقى من تلك التي يحتلها الفنان في جمهوريته . ناقضا بذلك احدى مصادرات افلاطون الاساسية التي تفترض الفصل بين التعبير والمعبر عنه ، وبالتالي بين التصور المتعين في العمل الادبي وتصور مثالي ثابت ومطلق ولا سبيل الى تغييره . لهذا كله يعد ارسطو هو الاب الحقيقي للنقد وللنظرية الادبية الحديثة على السواء . فقد اقام رده على المعضلة الافلاطونية على اسس نصية صرفة ، ورفض جوهر مسألة المحاكاة طارحا فكرة الابداع في مواجهة تصوراتها النسخية القاصرة . كما وسع من افق مفهوم الواقع ولم يجعله قاصرا على الواقع المتعين فحسب ، وانما على الممكن والمحتمل ، اي على اكتشاف المنطق الذي يحكم حركية الواقع والتعامل معه لا مع تجلياته المتعينة ، وهو الامر الذي كان باستطاعته ان يفتح الباب على مصراعيه امام علاقة جدلية خلاقة بين الادب والواقع . ويجعل الفن مبدعا لواقع مواز وفريد ، لايقل اهمية عن الواقع المتعين والمحسوس .

لكن هذا التوازن الارسطي الدقيق بين الجانبين المعياري والفكري في العملية النقدية سرعان ما غاب عن افق التبريرات التالية فنحا هوراس صوب الجانب النفعي للادب ، بينما اكد لونجينيوس على الجانب الجمالي منه ، وادخل القارىء او المتلقي لاول مرة الى العملية الفنية فجعل استجابته للعمل الادبي ، وتحريكه للعناصر السامية فيه احد مبررات الفن عنده . وحاول دانتي المزاوجة بين العناصر الفكرية والجمالية في العمل الادبي ، بينما أبرز بوكاشيو في رسالته عن دانتي البعد التعليمي للادب .

واستمر الامر على هذا المنوال في تبريرات الادب المختلفة حتى جاء فيليب سيدني فحاول الرد على المعضلة الافلاطونية مباشرة بعقد صلة الشاعر بعالم المثل لا بعالم الوقائع ، وبالتأكيد على ان العالم الذي يبدعه الشاعر افضل من عالم الحقيقة . لأن الشاعر لا يحاكي بالمعني الافلاطوني للمحاكاة ، وانما يبدع عالما من المثل الخالصة قادرا على اغواء القارىء بمحاولة محاكاته . ومن هنا ابتكر مصطلح العدالة الشعرية Poetic Justice التي تعاقب الشرير وتكافىء الخير . وهذا ماجعله يضع الشاعر في مكانه اسمى من تلك التي يحتلها المؤرخ أو الفيلسوف ، وكأنما ينتقم من افلاطون الذي أزرى به ، لان عمل الشاعر ينطوي على عملهما معا ويتجاوزه .

واستمر الحال بعد ذلك من ادموند سبنسر حتى بن جونسون ووبستر وميلتون ودرايدن وبوب وجوته وشيللر ووردزورث وكوليردج وشيلي وهوجو وبيلينيسكي وتين وسانت بيف وبيتر وزولا وكروتشه يتحرك بندول التبريرات بين الاخلاقي والاجتماعي والتعليمي تارة الى الجمالي والفلسفي والسامي تارة اخرى [٤] . يدخلون عليها جانب الذوق مرة ، ومسألة التقاليد الادبية اخرى ، وضرورات الواقع الاجتماعي او التاريخي ثالثة ، ولكن تظل المسألة في كل الاحوال مرتبطة بتبرير الادب ازاء اتهامات مفترضة بلا جدواه او لا أخلاقيته ، وتظل مسألة المحاكاة هي مدار الجدل مهما اختلف منهج تناولها ، ومهما كانت ألمعية الناقد في ابتكار صياغتها . وهذا ما دعا ديفيد ديتشيس الى الزعم بأن التنظير للادب لم يتخلص من أسر المعضلة الافلاطونية لامد طويل . لان تقديم درايدن لفكرة التعرف Recognition وجونسون لفكرة الطبيعة العامة General nature اراد ان ينقل الوظيفة التعليمية للادب من مجال الاقناع الى طرح الادب لنفسه كمعرفة ، أو كضرب متميز من ضروبها يتسم بالصدق والحيوية ولكنه لم يقم بالخطوة الضرورية نحو اعادة صياغة اسس فكرة المحاكاة ذاتها . بينما ركز الرومانسيون من وردزورث حتى كروتشه على مبدأ اللذة وعلى قدرات الشاعر الخاصة على تجسيم المبادىء الاساسية التي تنبثق من عقل الانسان ومبادىء الطبيعة على السواء ووضعها في صورة ملموسة حسية تتضافر فيها اللذة مع الحكمة . وطرحوا في هذا المجال معرفة الشاعر الحدسية في مواجهة معرفة الفيلسوف العقلية أو الادراكية [٥] .

وقد واصل النقد التقليدي هذا المسار الذي ينطلق من الرد على اعتراضات واقعية أو مفترضة او حتى متوهمة على مشروعية الادب ، وليس من البحث في حقيقته المتفردة . بل وواصل هذا المنحى بعد ان اتجه النقد الى تأسيس مشروعه المعرفي على قاعدة من العلم منذ منتصف

القـرن الماضي ، فبرره مـاثيو آرنـولـد في اواخر القرن الماضي في مواجهة تصور نوع من التناقـض او النفي يطرحه عليـه العلم . لكن تنـامي الاهتمام بـالعلم منـذ النصف الثاني للقرن الماضي غير مـن هذا المسار بشكل جـذري ، ووضع البحث الادبي على الطريق الذي ردّ خطاه الى سـاحة النظرية النقـديـة الحديثة . فمنـذ منتصف القـرن الماضي سعـى النقـــــد الى تأسيـس استقصاءاته على انجازات العلم في محاولة لاكساب الظـاهرة الادبية صـلابة الظـاهرة العلمية ومـوضوعيتها . فما ان نشر تشـارلز داروين (١٨٠٩-١٨٨٢) كتابـة عن اصل الانواع والاختيار الطبيعي On the Origin of Species by Means of Natural Selection عام ١٨٥٩ حتى شرع سانت بيف (١٨٠٤-١٨٦٩) وهيبــــــوليـت تين (١٨٢٨-١٨٩٣) في بلـورة منهج نقـدي يقوم على اثـر البيئة والعوامل الـوراثية [٦] . واستمرت بعـد ذلك استعانـة النقد الادبي بصورة اكبر بمنجزات العلـوم الانسانية من الاجتماع والاقتصـاد الى علم النفـــــس والانثـروبولـوجيا . واذا كـان الاعتماد على استخلاصات العلـوم التجريبية في تأسيس المشروع الادبي لايختلـف كثيرا من حيـث منطلقه الفلسفي عن الاعتماد على الفلسفة والعلـوم الاجتماعية ، فـانـه مضى بمشروع التنظير لـلادب خطوة مهمـة في الطـريق صـوب مـزيد مـن العلمية والمعيـاريـة في التحليل الادبي .

الأسـاس المعـرفي للمقـاربـات النقديـة الحديثـة

إنّ النمط الذي استقت فيه مناهج النقد الادبي والعلـوم الانســانيـة استقـــراءاتها ومشروعيتها من مرجعية المناهج الطبيعية سرعان مـا تعرض لمجموعـة من الضربات القـاصمة في القـرن العشرين بعدمـا ثبت اخفاقه في التعامل مع الظواهر الاجتماعية والثقافيـة المعقدة التي تتبـدي الكثير من ملامحها عبر اللغة ومن خلال آلياتها . فبعد ان سيطـرت السلـوكيـــة على علم النفس لسنوات طـويلة افسحت المجـال الآن امام استقصـاءات العمليـات الادراكيـة والفعل الارادي والتصرفـات القصديـة . وبعـد ان تطـورت الدراسـات اللغـويـة من سوسـور وأجـدن وبلـومـزفيلـد حتى تشـوميسكي طرحـت الكثير من اشكاليـاتها على العلوم الانسانيـة . واصبح من الصعب على دارس العلوم الانسـانية عامة ، والادب خـاصة ان يفصل بين الذات والموضوع بتلك الطريقة الصارمـة التي اعتاد من سبقـوه القيام بها دون اي شك او تـردد . وكانت دراسـة هذا العملية الادراكية هي مناط البحث في اكثر من مكـان في وقت واحـــد ، وهي مـا فتح الباب على مصراعيـه لعودة المعيـارية الى النقد الادبي من جديد ، وبطريقة لم يسبق لها ان تحققت منذ تأسيس ارسطـو لقواعد النقـد الاستقـرائي والمعياري في كتـابـه العظيم (فن الشعـــر) . لان الشك الـذي اراقته طرائق البحث الحديثة على مصداقية الاحكام الوثوقية السابقة عن الادب والواقع رد البحث الى ارهـاف ادواتــه الـوصفيـة والتحليليـــة والاستقـــرائيـــة ، بــدلا من الاستمرار في اصداره لاحكـام القيمة بكل ما تنطـوي عليه من تصـورات تعميمية عن العالم والانسان ، مهما كانت روعة ما تتسم بـه من حسن القصـد ، فـان قـدرتها على الصمـود في وجـه الاسئلـة الجديـدة عن دوافع الاداة ومـــدى تـــدخل الـــذات في الموضـوع محدودة الى اقصى حد . وكـان الحل هو التعمق في البحث عن الخصائص النـوعيـة التي تتشكل عبرها مـاهيـة كل مجال نوعي من مجالات النشـاط الانساني باعتبار ان المعرفـة النوعية المتفحصة هي الطريق الـوحيدة لاي معرفة صلبـة . وكان هذا هو المنحى الـذى اختطه دي سوسور في دراستـه المهمة للغـة عـام ١٩١٦ [٧] وفيكتور شكلـوفسكي في بحثه الـــشهير عن « الفن كأداة - Art as Device » عام ١٩١٧ الذي فتح البـاب امام استقصاءات الشكليين الروس المبهـرة ، وما تـلاها من بحث جـاد فيما اصطلح على تسميتـه الآن بعد ان بلغت تراكماته حدا كبيرا ، بالنظرية الادبية او النقدية الحديثة .

وأود هنا ان اشير الى الدور البارز الذي تحتله محاولة ريتشـاردز في عشرينات هذا القـرن للاقتراب بـالنقد من مـدارج العلم بتطويـر نظريـة سيكولـوجية في القيمـة ، ونفي كل التعميمات والتهويمات الجمالية من سـاحة العمليـة النقديـة ، وربط التأثير الـــذي يحدثـــه العمل الادبي بتصـــورات محددة في علم المعنى semantics ومعنى المعنى الـذي بـــلوره مـــع اوجـدن [٨] ، وبـالتمييز بين انـواع مختلفـة من المعنى واستعمالات متباينة للغة في هذا المجال . لا لأن كثيرا من الـــدراســـات النقـديـــة تغمطهما حقهما وتتغـاضى عـن انجـازهما الكبير في تطوير البذور الجنينيـة للاشارية semiotics في اعمال فرديناند دي سوسور ، بل لانهما وضعـا مجمـوعـة من اللبنـات الاساسية في صرح البنـاء النقدي الحديث فيما يتعلق ببحثه في علاقة الادب بالواقع . فقـــد ادى اهتمام ريتشـــاردز وأوجـــدن بالمعنى وبأنواعـه المختلفة الى العودة من جديـد الى المنهج الارسطي في الرد على المعضلة الافـلاطونيـة . لان تأسيس قضية التعـــــامل مـع الادب وغيره من النظـم الترميزية sympolic systems التي عرفت فيما بعد بـالاشاريـة semiotic في ساحـة التحليل اللغـوي كـانـت من الامـور التي ساعدت على اعادة طرح قضية علاقة الادب بالـواقع من خـلال منظور لغوي يـأخذ في اعتبـاره لغـوية كل الاطـر المرجعيـة التي تتعـامل معهـا الظـاهـرة الادبيـة . كما ان بحثهما فيما سميـاه بعلم الترميـز او علم الـرموز في عنـوان كتـابهما جعل عملهما مـوازيـا لعمل فـرديـنـــانـد دي سـوسـور والشكليين الـــروس ومكمـلا لـــه . فقـــد

مكنتهما عودتهما في الفصل الثاني من كتابهما [٩] الى الثقافات الشرقية التي تحتل فيها الكلمة مكانة توازي مكانة الفعل في الثقافة الغربية . ولأن تواتر السياقات ينطوي عندهما على تأسيس عملية التوصيل على ابتعاث خبرات سابقة ترتبط بها العلامة في عملية تأويل دلالتها ، فان تغير هذه الخبرات يؤثر على تلقينا للدلالات ويربط تأويلها بتباين المتغيرات التي تطرأ عليها . وبذلك تنهض العلاقة المعقدة بين اي اشارة او علامة ودلالاتها ، وسنعرف فيما بعد ان العمل الادبي برمته هو الآخر اشارة او علامة في حقل تأويلي مغاير ، على طبيعة التغيرات التي تنتاب هذه الخبرات او السياقات المتواترة . كما ان تركيز ريتشاردز وتلاميذه من بعده [١٠] ، على النقد التطبيقي ، واهتمامه باستجابة المتلقي للنصوص ، والدخول فيما دعاه بعقل النص فتح الباب امام تحليل جديد للنصوص وفق معايير نصية خالصة . وقد وجدت افكار مدرسة كيمبريدج تلك اصداءها النصية او بالاحرى التناصية الواهنة لدى اليوت في « التراث والموهبة الفردية » ، ولدى نقاد مدرسة النقد الجديد الامريكية من بعده ، او عند جون كرورانسوم في جسد العالم [١١] الذي يميز فيه بين انواع الشعر وفقا لموضوعاتها ومنطلقاتها او للتحليل الانطولوجي لها من شعر عضوي او افلاطوني او ميتافيزيقي . ويقيم فيه تناظرا بين الصيغ الفنية والجمالية والاشكال الاجتماعية والاقتصادية المختلفة التي يتناقلها المجتمع ويتوارثها جيلا بعد جيل .

لكن النقلة المنهجية التي خلصت الادب من سلبيات المقاربات القديمة كانت تلك التي تحققت على ايدي الشكليين الروس في عشرينات هذا القرن وما قبلها بقليل . لان انطلاقها من البحث عن ادبية الادب وطموحها الى الكشف عن ماهيته هو الذي طرد من افق الاستقراء الادبي كل اسئلة المعضلة الافلاطونية التي سيطرت على مسيرة النقد لعدة قرون . فلم يعد الادب معها مشغولا بالدفاع عن نفسه ازاء اتهامات حقيقية او متوهمة ، او مهتما بتبرير ذاته او دوره . لان منطلق البحث الادبي الجديد ينطوي على مصادرة مهمة ترى ان الادب نشاط انساني برر نفسه بالفعل من خلال استمراره وفاعليته عبر الحياة الانسانية على مر العصور . فلم نعرف تاريخيا ، منذ المجتمعات البدائية حتى اليوم ، بوجود حياة انسانية لم يكن لها نشاطها الفني او الادبي ، منذ رسوم انسان الكهوف المدهشة ، حتى احدث الاعمال الفنية والادبية المعاصرة . وهذا الوجود التاريخي للادب هو الذي ينفي عن دائرة البحث اسئلة الوجود ، ودوافع تبرير نشاط صمد لعوادي الزمن واستمر برغم كل متغيراته . وكان من الطبيعي ان يفتح الفراغ من اسئلة الوجود الباب على مصراعيه لاسئلة الهوية . فلم يعد السؤال المطروح هو ما هي وظيفة الادب ؟ او ما هي مبررات وجوده ؟ بل تجاوز ذلك الى ما الذي يجعل الادب ادبا ؟ او الفن فنا ؟ اي ما هي طبيعة ادبية الادب ، وفنية الفن ؟

هذه النقلة خلقت نوعا من القطيعة المعرفية لا مع الميراث النقدي الذى انشغل بالرد على المعضلة الافلاطونية فحسب ، وانما كذلك مع المقاربات النقدية التي اسست بحثها في نطاق الايديولوجيا ، او في العلوم الاجتماعية أو التجريبية المختلفة . وكانت هذه القطيعة المعرفية امرا بالغ الاهمية لانه قطع صلة النظرية الادبية بالكثير من المصادرات الفلسفية او الفكرية التي حاولت تبريره دون ان تتعرف الى حقيقته او استقاء ماهيته من خلال دراستها لآليات عمله الداخلية . لانها استهدفت بالدرجة الاولى تأسيس استقلالية الادب باعتباره نظاما نسقيا ومعرفيا متميزا كمجال الدراسة المنهجية ، وجعلته هدف البحث الادبي النظري وغايته الاساسية . وقد ادى هذا الى البحث في خصوصية المادة الادبية وجعلها مدار الدرس النقدي حتى يمكنه استخلاص حقائق هذا الفن اللفظي والتعرف الى البنى والانساق الفاعلة فيه . لذلك كان بوريس ايخناوم محقا حينما قال « ان الطريقة الشكلية استحوذت على اهتمام شامل واصبحت مدار الجدل ليس بسبب خصوصيتها المنهجية ، وانما بسبب طبيعة توجهها نحو فهم الادب ودراسته .. ويعود الفضل في هذا التحول الحاد الى تضييق الفجوة بين المشاكل المحددة لعلم الادب والمشاكل العامة لعلم الفن » [١٢] . واستخدام ايخنباوم لمصطلح العلم استخدام عمدي يهدف الى الاجهاز على الفجوة التقليدية بين الانسانيات والعلوم الطبيعية والاجتماعية من جهة ، والى وضع الجهد الرئيس للشكليين الروس في نطاق الاستقصاء العلمي المغاير كلية للجهد الايديولوجي الذي كانت تدور معظم الاجتهادات النقدية في سياقه .

ويستطرد ايخنباوم قائلا : « بالرغم من امعان الشكليين الروس في التخصيص ، فان المفاهيم والمبادىء العامة التي اسسوا عليها عملهم تشير الى نظرية عامة في الفن . ولذلك فان احياء البلاغة poetics او النظرية الادبية من حالة الركود الشامل الذى عانت منه ليس امرا بسيطا من حيث قدرته على اعادة طرح عدد من الاشكاليات المحددة ، وهدمه لعالم كامل من المفاهيم السائدة حول الفن . وقد نجم هذا عن سلسلة كاملة من الاحداث التاريخية ، كان اهمها على الاطلاق الازمة في فلسفة الجمال والتغيرات الجذرية في الفن » [١٣] . وبهذه الطريقة يؤسس ايخنباوم البعد التاريخي لاستقصاءات الشكليين الروس التي شاع انها مجرد كلية من التاريخانية ، وانها مغرقة في نزعتها الشكلية الى حد تجاهلها كلية للسياق الحضاري الذى ظهرت فيه ، او الذي صدر عنه العمل الفني الذى تتناوله . فلم تظهر

هذه المدرسة فحسب باعتبارها محاولة للتخلص من الازمة التي عانت منها فلسفة الجمال وقت انبعاثها ، او نتيجة للكسل العقلي والمنهجي الذي عانى منه مؤرخو الادب في ذلك الوقت ، ولكنها ظهرت كذلك كما يؤكد هنا استجابة للتغيرات الجذرية التي انتابت الفن في عصرها . فقد كان العصر الذي ظهرت فيه هو عصر ازدهار المستقبلية في الادب والفن في روسيا ، ولم يكن بمقدور المناهج النقدية السائدة بتجاهلها الواضح للبحث النظري واستنامتها لدعة قيمها الجمالية البالية ، التعامل مع جديد من هذه المدرسة الفنية التي تمردت على كثير من المسلمات الفنية والادبية السائدة . لذلك كان اهم ما اعادت كتابات الشكليين الروس تأكيده هو ان النقد الانطباعي أو الصحفي او حتى الرمزي السائد في عصرها قد فقد الوعي بغايته ودوره وموضوع بحثه ومجال هذا البحث الى الحد الذي اصبح وجوده معه اقرب الى الوهم منه الى الواقع [14] .

وقد ادى هذا الى بدء الشكليين الروس ، وهم اول من اسس قواعد المنطلق المعرفي الجديد الذى بلورته النظرية الادبية الحديثة ، من مبدأ ان دراسة الادب لابد ان تتجه نحو الخصوصية والتجسيد ، وان تنأى قدر المستطاع عن تلك الانتقائية غير المنهجية التي اتسم بها النقد السائد في عصرها . وكان في رفضهم لتلك الانتقائية انصرافا واضحا عن هذا الخلط الاعتباطي بين المناهج العلمية المختلفة والمشكلات المنهجية المتباينة . وقد انطلقوا في هذا الرفض من مبدأ بسيط وهو ان هدف الدراسة العلمية والمنهجية للادب لابد ان يكون *التعرف الى الخصائص النوعية للمادة* الادبية ، واستقصاء السمات التي تميز هذه المادة عن غيرها من المواد الاخرى .لكن تأسيس هذا المبدأ البسيط دون اللجوء الى التهويمات الجمالية تطلب مقارنة نسق تراتب الحقائق الادبية بنسق آخر قريب منه وهو نسق تراتب حقائق الانشطة اللغوية الاخرى ، وذلك من خلال المقارنة بين اللغة الشعرية واللغة العملية او النفعية .

وكان اختيار اللغة باعتبارها النشاط الانساني الذي يؤسس الشكليون خصوصية التناول الادبي بالقياس بتمايزه عن اي تناول آخر للغة هو السبيل للتخلص من لجوء الدراسة الادبية الى المناهج التقليدية الاخرى في دراسة الادب بدءا من التاريخ الادبي والثقافي ، الى المناهج الاجتماعية والنفسية ، وحتى الجمالية ، والتوجه صوب مزيد من الاستقراء العلمي والموضوعي للظاهرة الادبية ، مما فتح الباب لاثارة الاسئلة حول مصادراتها والمسكوت عنه فيها .

وقد فصلت هذه المرجعية اللغوية دراسة الادب عن مجموعة المصادرات المنطقية التي تبنتها النظرية النقدية دون تقصي ماهية الادب وعلاقته بالواقع والاطر المرجعية المختلفة التي تتيح له الاحتفاظ باستقلاله النسبي عنها دون ان تفصم عرى علاقته الوثيقة بها . لانها موضعت الدراسة الادبية ضمن الدراسات الاشارية التي تعد النص الادبي مفردة من نظام كامل من العلامات النصية التي تتكون من علاقاتها قواعد الابداع والتلقي على السواء . وادى هذا الى دراسة الاشارة الادبية باعتبارها اداة في عملية التوصيل بين المرسل والمتلقي من ناحية ، وباعتبارها علامة لها محتواها الدلالي واستقلالها الذاتي من ناحية اخرى . ومن هنا بدأ تمحيص كل جزئيات النص الادبي باعتبارها اشارات ثنائية البنية ومزدوجة الوظيفة في وقت واحد ، وهذا ما اكسب كل اشارة دلالاتها داخل النص الادبي وفتح الباب امام التعرف الى الدلالات والوظائف المتعددة التي تنهض بها داخل *البنية النصية* . كما ان الوعي بتراتب العلاقات داخل النظم الاشارية هو الذي كشف عن حقيقة العلاقات التراتبية في بنية المكانات داخل النص الادبي نفسه ، وعن علاقة هذا كله بانساق التراتبات الاجتماعية المستقرة في الاطار المرجعي الذي يصدر عنه العمل ، وتبنيه لها دون الوعي بما تنطوي عليه من تحيزات ، او ما تتضمنه من حيف وتمييز ■

هوامش واشارات :

١ - اعرف ان بعض هذه الاستقصاءات النظرية قد ظهرت في فترة باكرة عن العقد الذي انسبها اليه ، فمن المعروف ان كتاب لوكاتش المهم عن « نظرية الرواية » قد كتب في العقد الثاني من هذا القرن ، وان اوجدن وريتشاردز مؤسسا مدرسة كيمبريدج قد نشرا اعمالهما المهمة في العشرينات ، ولكن المقصود هنا هو العقد الذي ارتفع فيه تأثير النقاد المذكورين الى سمة الفاعلية الواسعة في هذا المجال . واخذت فيه كتاباتهم في لفت نظر الواقع الادبي الى اضافاتها المهمة .

٢ - في كتابه :

Roland Barthes, Critical Essays (Evanston, North Western University Press 1972.

٣ - ديفيد ديتشس ، مناهج النقد الادبي بين النظرية والتطبيق ، ترجمة محمد يوسف نجم ، (بيروت دار صادر ، ١٩٦٧) ص ٤١ .

٤ - لمزيد من التفاصيل عن تطور استقصاءات منظري الادب في هذا المجال يمكن مراجعة :

Allan H. Gilbert, Literary Criticism: Plato to Dryden (Detroit, Wayne State University Press, 1962) and Gay Wilson and Harry Clark, Litrary Criticism: Pope to Croce (Detroit, Wayne State University Press, 1962).

٥ - راجع الفصل الاول من كتاب بنديتو كروتشه ، علم الجمال ، ترجمة نزيه الحكيم ، (دمشق ، المطبعة الهاشمية ، ١٩٦٣) ، ص ٥-١٨ .

٦ - يحمل كتاب برنار في الواقع عنوان (علم وظائف الاعضاء او الفسيولوجي التجريبي) ، ولكن ترجمته العربية الشهيرة التي صدرت في الاربعينات اختارت مدخل الى دراسة الطب التجريبي ، ترجمة يوسف مردا وحمدالله سلطان ، (القاهرة ، المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٩٤٤) عنوانا لها .

٧ - كتاب دي سوسور هذا هو Ferdinand De Saussure, Course de linguistique generale الذي ظهر لاول مرة عام ١٩١٦ ، وقد ظهرت ترجمته الانجليزية متأخرة جدا تحت عنوان Course in general Linguistics من ترجمة Roy Harris عام ١٩٨٣ عن

(London, Duckworth, 1983).

٨ - راجع كتابهما الشهير :

C. K. Ogden and I. Richards, The Meaning of Meaning: A. Study of Influence of Language upon Thought and of the Science of Symbolism (London, Longman, 1923).

٩ - راجع الكتاب المذكور في الهامش السابق ، ص ٢٤-٤٧ والطبعة التي استخدمها من الكتاب هي طبعة Harvest Book الصادرة عن (New York, Harcourt, Brace & World, Inc., 1965).

١٠ - من ابرز تلاميذ ريتشاردز ونقاد مدرسة كيمبريدج وليام امبسون Empson و. ف. ر. ليفيز F. R. Leavis وزوجته ك. س. ليفيز .

١١ - راجع : *John Crowe Ransom, The World's Body* (New York, Charles Scribner's Sons, 1938).

١٢ - B. M. Ejxenbaum, "The Theory of the Formal Method", in Ladislav Matejka and Krystyna Pomorske (eds), Readings in Russian Poetics: Formalist and Structruralist Views, (Cambridge Mass, the MIT Press, 1971), P. 5.

١٣ - المرجع السابق ، نفس الصفحة

١٤ - لمزيد من التعرف على واقع النقد الروسي في هذه الفترة راجع دراسة ايخنباوم ، المرجع السابق ، ص ٥-٣٧ ، وراجع ايضا Victor Erlich, Russian Formalism: History - Doctrine, (New Haven, Yale University Press, 1981), p. 51-56.

قراءة في كتاب

تنميـــة ثقافـــة الطفـل العـــربي

تأليف الأستاذ : سمر روحي الفيصل
عرض الأستاذ : مصطفى النجار - سوريا

ان من الاضافات التي تذكر للأدب العـربي المعاصر على مجمل الآداب خلال العصور المتعاقبة . الاهتمام الجاد والملحوظ بأدب وثقافة الأطفال .

وقد تجسدت هذه الاضافة في كتابة الأناشيد والقصص والمسرحيات التي برز فيها ادباء وشعراء مهتمون بأدب خاص بالأطفال تتلاقح فيه بدرجات متفاوتة مزايا وخصائص تعلن عن هوية مثل هذا الأدب ، وتفترق به عن ادب يكتبه الكبار للكبار ولكن موضوعاته عن الصغار .

ان هذه الاضافة ازدادت كماً في العقـدين الاخيرين بعد ما ساعـد على هذه الكثـرة توصيـات رسمية وشعبيـة وتربـوية ، اوجـدت - بمـرور السنوات - نقـادا مهتمين بأدب الأطفـال ، وبثقـافة الأطفـال كما افـرزت دارسين وبـاحثين وتربـويين ، يهتمون بما يدفع عجلة التأليف للأطفال إلى الامام . وكان من هؤلاء الناقد السوري سمر روحي الفيصل الذي عرف باهتمامه البالغ بثقافة وأدب الأطفال وبكل ما له علاقة بالأطفال ، اضافة إلى جهوده في نقد الرواية السورية والعربية .

فقـد صدر لـه كتـاب « تنميـة ثقافـة الطفل العـربي » عن الجمعيـة الكـويتيـة لتقدم الطفولـة العـربيـة ضمن سلسلـة الـدراسات العلميـة المتخصصـة في نوفمبر ١٩٨٨م ، وهـذا الكتاب متـابعة جادة ورصينه في هـذا المجال . وقسم المؤلف كتابه إلى سبعة فصول هي :

* الطفل والتنمية الثقافية .
* اكتشاف الموهبة الثقافية ورعايتها .
* تنمية القراءة .
* تنمية التذوق .
* تنمية أسس البحث الثقافي .
* القيم وصحافة الأطفال .
* التلفاز ولغة الطفل .

وفي مقدمة الكتاب يبدأ المؤلف بحثه من نقطة مهمة حيث يقول : يجب ان تحتل التنميـة الثقافية المرتبـة الأولى في أية خطة عـربية للتنمية .. وليس غـريبا بعد ذلك ان تبـدأ التنمية الثقـافيـة بالأطفـال لسببين : أولهما : أن الأطفـال يشكلـون غـالبيـة الأفـراد في الـوطن العـربي والثاني: أن هـؤلاء الأطفال لم يـدخلوا الساحة الاجتماعية بعد ، ومن الضروري ألا ندعهم يدخلونها دون أن نزودهم بما يجعلهم يتكيفون معها ويؤثرون فيها .

كما يشير إلى اهتمام حديث العهد بثقافة الطفل توليه السلطة العربية فيما سماه بالصحوة الثقافية التي من أهم ملامحها :

* تدريس مادة أدب الأطفال في أقسام اللغة العربية .
* انشاء دائرة ثقافة الطفل في بعض وزارات الثقافة .
* تشجيع نشر كتب الأطفال ومجلاتهم في الإذاعة والتلفاز .
* تشكيل لجان عليا لرعاية الطفولة .

وفي الفصل الثـاني المتعلق باكتشـاف الموهبة الثقـافية ورعايتهـا يرغب من المعنيين بتربية الأطفال أن لا يعـولوا على المصادفة وحـدها باكتشاف مـواهب الأطفال فعليهم ان يسعوا إلى اكتشـاف هـذه المواهب بتحليهم بـالقـدرات والمعـارف اللازمة لأداء هذه المهمة وهي كما يعددها :

* القدرة على الملاحظة المستمرة .
* القدرة على اثاره الطفل الموهوب .
* القدرة على توجيه الطفل الموهوب .
* المعرفة الثقافية واللغوية .
* معرفة مراحل نمو الطفل .
* معرفة صفات الطفل الموهوب وحاجاته .

ويخصص الفصل الثالث لتنمية القـراءة ويشير الناقد سمر إلى تقصير الكبـار في التعـرف إلى امـرين اثنين - في هـذا المجال - هما : حاجات الطفل القرائية وأنواع قراءاته .

وتحدد حـاجات الطفل القـرائيـة الخطوط العـامة لأنـواع القراءات الصـالحة له بحيث يعـد صالحا كل كتـاب ينجح في إقامـة علاقة بينـه وبين الطفل ، وكل كتاب يؤثـر في شخصيته ويحدد سلوكه .



تنمية المعرفة الثقافية واللغوية عند الأطفال من خلال القراءة

ويستعين المؤلف في دراسـة هـذا المبحث بـآراء اهـل التربيـة وعلماء النفس - وهذا ديدنه في جميع فصول الكتـــاب - ومن هــــذه الآراء تقصي المؤثرات الخارجية والمؤثرات الداخلية في تنمية عـادة القراءة والـوقوف على



اكتشاف المواهب ورعايتها جزء اساس من العملية التربوية .

مفاهيم مثل : مفهوم الأنسنة والمفهوم الاسطوري والمفهوم الانساني ومفهوم الطفولة .

وقد وقفت مؤخرا على تجربة مسماة بـ « مهرجان القراءة للجميع » حيث تقوم الهيئات والجمعيات الثقافية على امتداد اقاليم مصر خلال الاجازة الصيفية بتشجيع القراءة واستغلال كل ساعة من أوقات الفراغ من قبل الأطفال والشباب بالمطالعة اضافة إلى الهوايات والاهتمامات الاخرى ويتمنى في هذا المجال الدكتور يسري العزب ان تتحول القراءة إلى عادة مثلما كانت في الماضي عند الجميع بل تصبح المكتبات مكانا جميلا يجذب الجميع ، وكما خصص الناقد سمر الفيصل فصلا للمطالعة وتنميتها عند الأطفال خصص فصلاً لتنمية التذوق. وهي عملية شاقة وعسيرة ولكنها ممتعة - على حد تعبير المؤلف - ولعل اهميتها تكمن في أن الطفولة مرحلة اكتساب العادات والمهارات، فإذا فات الطفل اكتسابها صعب عليه استدراكها حين يكبر . وصدق من قال : العلم في الصغر كالنقش في الحجر . ويختم المؤلف هذا الفصل بمثالين عمليين هما :

الأول : في قصيدة البحتري التي مدح بها الهيثم الغنوي بيت معروف لدينا جميعا هو :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد ان يتكلما

حيث يضع المؤلف جملة من الأسئلة لمناقشة هذا البيت مع الأطفال تجاوزت العشرين بدأها بهذا السؤال : عن أي شيء يتحدث البيت ؟

هذا السؤال يبدو بسيطا ولكن المؤلف يهدف إلى تعويد الطفل على الدقة والسير به إلى فهم الأبيات التالية والإحساس بعاطفة الشاعر وممارسة التعبير واطلاق الأحكام .

الثاني : اصطحب الخطاط معه عدة لوحات ذوات زخارف إلى الأطفال كتب في كل واحدة منها « بسم الله الرحمن الرحيم » مكتوبة بالخط الكوفي وخط الرقعة وخط النسخ ، ويكمن الهدف من وراء هذه الخطوط في تدريب الأطفال - كما يقول المؤلف - على الانتباه الدقيق ، والملاحظة العميقة ، والنظام والإنسجام والتنسيق وحسن الترتيب والنظافة والتأني لبلوغ الكمال وذلك عن طريق الأسئلة والمشاهدة والمقارنة ثم تقليد الصغار للخطاط النابغ .

ومن ثم يذهب المؤلف بالطفل إلى الحث الثقافي وتنمية أسسه فلا يترك في مبحثه ثغرة الا وسدها بمعلومات إضافية تدل على ثقافة الناقد سمر وبحثه الدؤوب في المصادر واستنباط ما يلزم لبحثه واغنائه ، فيقسم مبحثه إلى عناوين مثل: الأهداف العامة للبحث - الأهداف الخاصة للبحث الأدبي والبحث التاريخي - صفات الباحث واختيار البحث - اعداد البحث .

ولعل الفصلين الاخيرين وهما : القيم وصحافة الأطفال والتلفاز ولغة الطفل من أهم فصول الكتاب واحبها إلى النفس بخاصة عند ذوي الاهتمام الأدبي والإعلامي، لما للصحافة من تأثير بالغ الأهمية وكذلك التلفاز وملحقاته على الطفل في تنمية القراءة والتذوق وتنمية البحث العلمي والادبي واكتساب العادات والخبرات والمعارف فإما ان تأخذ بالطفل إلى طريق صحيح وسويّ أو إلى ما لا يحمد عقباه

فالمؤلف يربط صحافة الأطفال بجملة من القيم منها حسبما قام بترتيبها تبعا لأهميتها : القيم الثقافية ثم القيم الإجتماعية ثم قيم تكامل الشخصية والترويحية ثم القيم العملية الإقتصادية والقومية الوطنية والأخلاقية والجسمانية .

وأما عن تأثير التلفاز - هذا الصندوق السحري العجيب - فهو تأثير كبير ومن هذه التأثيرات ما أشار إليها المؤلف وقام بتحليلها مثل : اثر التلفاز في اكتساب الخبرات اللغوية واثره في ترسيخ الثنائية اللغوية وفي ترسيخ العامية واثره في اكتساب اللغة العربية الفصيحة وأثر التلفاز في التعبير اللغوي ، فمن الملاحظ أن المؤلف قد حصر تأثير التلفاز على الأطفال في مجال اللغة والتعبير ورأى ان اقتصار البحث على هذا الجانب رغم اهميته ، يجعل البحث غير كاف .. فالتأثيرات الاخلاقية والتربوية وغيرها على اتصال كبير بعنوان الكتاب «تنمية ثقافة الطفل العربي» .

وقد سلك المؤلف في فصول الكتاب عامة الرؤية المثالية الايجابية في معالجة ثقافة الطفل العربي ونأى ببحثه عن المخاطر والعثرات والسلبيات التي تعترض سبيل هذه التنمية .

وفي نهاية هذه القراءة اجد ان الناقد الحقيقي لفرز ادب اطفال عن ادب ليس للأطفال، ولفرز أدب نافع وجميل عن ادب مكرس للقبح والمساوىء ، ولفرز ادباء وشعراء تصلح نصوصهم للأطفال عن ادباء وشعراء مجالهم أدب الكبار ، هو الطفل نفسه ...!

سبق أن استمعت إلى اديبة ومربية القت على اسماعنا - نحن الكبار - في أمسية أدبية ، عدداً من قصص زعمت انها للأطفال ، وبعد فراغ هذه السيدة .. طرحت تعليقات كثيرة كان منها هذا السؤال .. هل قرأت هذه القصص على الأطفال ؟ فأجابت بالنفي .. وابتدأ النقاش في مساره الجديد .

ان الناقد الحقيقي لأهمية اية تنمية لثقافة الطفل العربي ومدى نجاحها هو الطفل ذاته عندما تجري به الأعوام وتظهر عليه ومنه حصاد هذه التنمية ! ■

في «فتنة المعاصرة»

بقلم: د. ابراهيم السامرائي - اليمن

كنت قد كتبت في هذا الامر، وقد نشرت في غير موضع ذاك الذي حررته في «الجديد» وسميته بـ «فتنة المعاصرة»[1]. وكأن شيئا دفعني الى أن أضيف اضافة أخيرة الى ما كان مني في هذه «المسألة». لقد تعودت أن أقرأ «القافلة»، ووقع نظري على مقالة موجزة مادتها «علم الدلالة من منظور غربي» كتبها الدكتور منذر عياشي، عرض فيها المصطلح الغربي الفرنسي La Semantique الذي نقله المعاصرون الى مصطلح «علم الدلالة» ليبعدوه عما هو في ملاك العربية مما يتصل بـ «علم المعنى» بعيدا عما ورثناه من «علم المعاني» احد علوم البلاغة لدى الذين عرفوا علوم العربية.

ان مقالة الدكتور عياشي مفيدة، وذلك لان هذا الجديد هو مما ادركه الغربيون في دراساتهم التي تطورت وسلكت مسيرتها في «تجديد» العلوم الانسانية.

وقد وقع نظري على مقالة اخرى للشاعر حسب الشيخ جعفر وهي قراءة في قصيدة المتنبي التي مطلعها:

ملومكما يجلّ عن الملام

ووقع فعاله فوق الكلام

وقد ذهب فيها صاحب المقالة، وهو الشاعر، في بسط ما ينبغي ان يبسط بين يدي هذه القصيدة، ،وسأعود الى هذه المقالة الثانية التي فتحت امامي سبيل الدخول الى ما جاء به «الجديد» مما دُعي «حداثة» او معاصرة، فأبدأ بشيء دعاني اليه «الجديد» في المقالة الاولى وهي «علم الدلالة».

أقول: لقد قدمت أن الباحث قد عرض لهذا العلم كما عرف لدى اصحابه من علماء الغرب. انه مفيد ولعل حاجتنا اليه تندرج في حاجاتنا الكثيرة الى العلوم الحديثة. فالعلوم التطبيقية هي مواد غربية وجدنا أنفسنا نأخذها للحاجة اليها. ثم ان الغرب رافد عظيم ليس لنا الا أن نفيد منه، لقد فرض علينا هذا الجديد حتى تجاوزنا فيه الحدود، ألا ترى أننا لم نقتصر على ما هو ضروري مفيد لا غنى لنا عنه في العلم فذهبنا الى اشياء أخرى تتصل بعيشنا وسلوكنا؟ ألا ترى ان بعض هذا الذي يأتينا مع المفيد الذي لسنا نجد فينا ما يسد مسده، وهو شيء يحمل الضيم على ما لنا مما كان وما ورثناه؟

واعود الى العلوم الانسانية فأجد اننا تأثرنا فيها بما يفد الينا من هذا الجديد حتى بدأنا نحاول ان نساير الجديد الوافد، ألا ترى ان طائفة من الدارسين استعارت المنهج الغربي في تفسير ما هو اسلامي، فذهب نفر منا الى تقريب علم الكلام من الفلسفة المعاصرة بحجة التحديث منطلقين من حركة «التنوير» التي ارسلت أشعتها جماعة الداعين الى ما يسمى «التقريب» في مطلع هذا القرن.

أعود الى ما دعتني اليه مقالة الاستاذ عياشي فأقول: ان مادة هذه المقالة شأنها شأن سائر الجديد الوافد، ينبغي ان يكون لها حيز يحسن بالدارس ان يفيد منها وهو كل ما يتصل بالادب الحديث من شعر وقصة ورواية ونقد. وهي هنا مناسبة لما هو عربية معاصرة. غير ان من التعسف ان نجعل هذا الجديد بـ «حداثته» و «معاصرته» مادة لفهم شيء يتصل بالعربية التاريخية ادبا وفنا.

١ - فتنة المعاصرة، فصول يضمها كتاب قيد الطبع.

لقد هرع أصحاب الجديـد من الدارسين العرب الى إسقاط هذا العلم الوافد برمـوزه ودلالاته على ما هو إرث قديم، ولي ان أعرض لأمثلة من هذا لأبين فساد هذا المنهج.

ذهب نفر من البـاحثين إلى مسألة «النظم»، وهـو مادة في كتاب «دلائل الاعجاز» للامام عبد القاهر الجرجاني، وحاولوا ان يجدوا له (أي لهذا النظـم) سبيلا إلى الـوصول إلى مـا بسطه «نعوم تشومسكي» العالم الامريكي في مادته «النحو التحويلي» الذي ينطلق من «النحو التوليدي».

ان فكرة الأستـاذ الامريكي قد اهتدى اليهـا في نظره إلى اللغـات الغربيـة ولا سيما الانكليزيـة ووصل فيها إلى ان لـدى المتكلم طـاقة في تـوليـد الكثير من التراكيب «الجمل» لاداء معنى بعينه. لقـد لجأ إلى «التحويل» في اجـزاء الجملة وخلص إلى ما خلص إليه.

ثم جاء اصحابنا العرب الذين آمنوا بالمعرفة الوافدة فأرادوا ان يجدوا لها مكانا في تراثنا، فماذا صنعوا؟

لقد ذهـب نفر منهم أسـاءوا حقيقة كتـاب «دلائل الاعجاز» الذي هـو إعجاز وإثبـات «الاعجاز» بــ «دلائل» في لغة القـرآن العـزيـــز. وكأنهم وقفـوا على مسألـة «النظـم» التي اراد فيهـا الجرجاني ان يقول إن لوضع الكلمة في لغة التنزيل معنىً وسراً هو شيء من هـذا «الاعجاز» بحيث لـو حُوّلت في تـركيب آخر لكان قصد وخصوصية غير ما كان لها في أيّة أخرى.

لقد ظن هؤلاء إن مسألة «النظم» التي أطال فيها الجرجاني واحتلت من كتـابه حيـزا وفصولا، شيء يقـرب مما ذهب إليــه تشـومسكي في «نحـوه التحـويلي». لم يلتفتـوا إلى ان مـادة الدرس تختلف لـدى الجرجاني عن نظائرها لـدى تشومسكي، ولم ينظروا إلى الفارق التاريخي، وسلكوا سبيلهم في هذا النظر القاصر.

وراح اشيـاع هذا الـدرس من اصحـاب «الحداثة» يهلّلـون ويكبّرون لهذا الفتح المبين، ولكنـي اتخيل ان صـــــاحبهم تشـومسكي من أهل الحلـم والعقل، وظني بـه انـه ينكـر على احداثنا العـرب هذا السبيل. إنه عالم بـالمسيرة التاريخية لعلم اللغة، وانه على علم كاف بما يتصل بكل ما هو «سامي» من لغة وفكـر، فـلا يمكن ان يقبل هـذه الخلاصـة ثمـرة مبتسرة غير ناضجة.

لقـد طلع علينـا اصحـــاب «الحداثـة» في عملهم اللغـوي بمصطلح جديد قذفوا به وردّده اشياعهم فرحنا نسمع مثلا: «الحداثة» التي أريد بها أن تقابل ما هو Modernisme، ولكن دلالتها غير واضحـة لدى النفر الـذي اراد أن يقول لنـا إن هذا الجديد هو الفن والادب، فلكل منهم فهـم أو ما يشبه الفهم من هذه الكلمـة. وأنت في جملة هذا بعيد عن «الحداثـة» مثلا في قول المتنبي:

فما «الحداثة» عـن حلـم بمانعـة
قد يدرك الحِلم في الشبان والشيب

وأنت تجد من هـذا المصطلح الفني الجديد «التنـاص» لما هو من شبـه بين نصين، ولا تدرك لم سيقـوا إلى هذا؟ ولكنك تعرفه إذا وجدت *الناقد الغربي* قد حاك في خاطره وذهنه شيء من هذا.

وأنت اليوم يكـاد يصيبك ما يشبـه الدوار وأنت ممتحن من اجل فهم هذا المصطلح. ولم يكن هـذا الامتحان من أنك تفكّر في علم له ثوابت وقواعد، ولكنك ممتحن بأساليب من ينهجون هذا النهج ويعكّرون عليك الصفو فلا تبصر إلا القليل القليل.

إن هؤلاء اصحاب جرأة على العربيـة فلا يتوقفون مثلا حين لا تستجيب لهم العربيـة. إن «التناصّ» مصـدر للفعل «تناصّ». إنك لتسأل: هل هـذا في العـربية، وهل من سبـب يدعـو إلى توليده؟

ومثل هـذا طائفة من الكلـم الجديد الذي سعى إليـه أهل الجديـد من أصحـاب الحداثـة وغيرهم. ثم كـان لي نظـر في المقالة الثانية التي كتبها صاحبها الشاعر حسب الشيخ جعفر ونشرت مع المقالة الاولى في «القافلة»[1].

قرأت هذه المقالة في «قصيـدة للمتنبي» فوجدت صاحبها قد عرض لهذه القصيدة عرضا مـوفقا جاءفيه على فوائد لابد أن تقال بين يدي القصيدة وظـروفها وما يتصل بتلك الظروف من قريب أو بعيد بما يحيط الشاعر من عوامل البيئة.

لقد احسن الكـاتب وأتى بما هو مفيـد.، وعجبت أيما عجب أن يعمد هذا الكـاتب الشاعر إلى شيء من لوازم هـذه المقالة، وهـــو من «أصحـاب الحداثـــة»، فـابتعـــد كثيرا عن المذهب «البنيوي» الذي قصر عليه هذا النفر درسهم.

إن مؤدى هذا الدرس أن يقتصر الدارس على درس «البنَى» وهي الكلمات في القصيـدة ومـا كـان من صيغتهـا ودلالَتهـا وصلتها بالكلمة الاخرى من قبلها ومـن بعدها، وما يؤدي جملة التركيب من دلالات.

والدارس في هذا المنهج يبتعد عما هو خاص بالشاعر، ولمَ قال القصيدة ، وصلتها بالظروف والبيئة ونحو هذا.

إن كاتب المقالة، وهو شاعر من هذا النفر، لم يتّبع ما ذهب

إليه صحبه الجدد فترك نفسه على سجيتها فاستجابت له، وهو شاعر بما يجذبه من امر هذه النغمات الصادقة التي عبرّت عن معاناة المتنبي.

لقد عرض لما هو شيء من ديباجة القصيدة التي صور فيها المتنبي ما ألم به من أسى، وهو في مصر، ،قد ألمت به الحمى، وما كان من نهاية صلته المؤلمة.

أقول: ان هذه «الديباجة» ليست «مقدمة طللية» التي كتب فيها الدارسون فارضوا النفر الجديد من «أهل الحداثة» وغيرهم.

نعم، ان المتنبي هو القائل:

إذا كان مدح فالنسيب مقُدَمُ

أكل فصيح قال شعراً متيّم؟

ولكنه مع هذا قد أفرغ في كثير من «نسيبه» شعرا صادقا، أليس هو القائل:

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي

وللحب ما لم يبق مني وما بقي

وهو القائل:

نرى عظَما بالبين، والصدُّ أعظمُ

ونتّهَم الواشين، والدمـــع منهم

وغيرهذا.

وكنت أود أن يفطن صاحب المقالة الى مطلع القصيدة التي تحدث عنها فيشير إلى الخطاب بالتثنية الذي كان من مذهب الشاعر القديم في قوله مثلا: «خليليّ»، وقوله: «ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا»، وهذا مثل قول المتنبي: «ملومكما يجلّ عن الملام». لقد وجد الشاعر القديم في اسلوب التثنية جمالا في الاداء، وصلة شديدة لما يكون بين الاثنين اللذين ربما كان الشعر في بعض القصائد احدهما، وهو يجرد هذا «الاحد» من نفسه فيخاطب الاثنين.

وكان بنا حاجة ان يشير الكاتب إلى صلة المتنبي ومثله الشاعر القديم «براحلته» التي قال فيها:

عيون رواحلي إن حرتُ عيني

وكل بُغَــــام راحلتي بُغامــــــي

فقد أرد المياه بغير هاد

سوى عدّي لها بَرق الغمــــــام

ولكنه اشار إلى ما كان من عادة العرب إذا انقطع القطر «فشاموا البرق» استمطارا.

أقول: كان لنا أن ننظر في صلة الشاعر القديم بالراحلة وهي الناقة أو قل «الجمل» الذي صرفه العرب للمذكر والمؤنث. وقد أعجبوا بخَلْق الجمل، فكان لهم من لفظ «الجمل» معنى الجَمال» وهو الحسن، والى هذا اشارت لغة التنزيل العزيز: « أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » الآية ١٧ / الغاشية

وقوله تعالى: « وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ » الآية ٦ النحل.

ولعلك تجد هذا في توجه الراجز القديم في قوله:

شكا اليّ جمَلي طول السرى

يا جملي، ليس اليّ المشتكى

صبرا جميلا فكلانا مبتلى

لقد أنزل هذا الراجز «الجمل» منزلا ساميا وجعله رفيقه فأحسن خطابه. ثم انهم عرفوا «الجمل» وصبره، ومن هنا كان وصف الصبر بـ «الجميل» والى هذا تومىء الآية الكريمة: « قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا» الآية ٨٣ سورة يوسف. فكيف لنا أن نقتصر على ما خطه اصحاب البنيوية فنبتعد عن هذه الفوائد التي يتطلبها النص القديم؟

إن اصحاب الحداثة قد ابتعدوا عن «الشعر القديم» ذلك الموزون والمقفى في حيّز «البحور المعروفة»، وقد تجاوزوا هذا الابتعاد الى النيل من هذا الموزون فوصفوه بالشعر «ذي الشطرين»، حتى عاب احدهم على بدر السياب في أن له قصيدة عمودية، وقد احتال عليها فجعل اجزاء البيت الواحد في عدة أسطر: كلمتان ثم كلمة ثم ثلاث فكمل بذلك «الصدر»، ومثل ذلك صنع في «العجز».

لقد عدّ هذا الناقد هذه الطريقة في الرسم حيلة من لدن السياب الذي أكل أهل الحداثة ما انجزه وسرقوا منه، فأكثروا من « نغمات المطر » تقليدا ومحاكاة.

وأعود إلى صاحبي حسب الشيخ جعفر، فأجده الحليم الرشيد في تناوله قصيدة المتنبي، وهو من اصحاب هذا الشعر الجديد الذي امتحن به الدارسون. إنك لا تجد اثنين من أهل العلم قد اتفقا كل الاتفاق فيما قالوه في قصيدة أو مجموعة من القصائد لاحد هذه الرموز المشهورة من اصحاب الشعر الجديد.

واختم هذا الموجز فأشير إلى أن الاستاذ أدونيس الذي سفّه الكثير مما سمي الشعر العمودي طوال العصور قد استثنى الجواهري، أليس هذا من العجب؟.

إن ادونيس ماهر حاذق قد عرف ان لدى الجواهري آلة إذا سلّطها على من لا يحب فعلت به الأفاعيل

صُدود

شعر: حسن السبع - القطيف

لنـا - والهوى ! صـدر يمـوج بـدفئـه
لصـدر تمادى في الصـدود وفي البردِ
سلكنـا لها دربـا مـن الشـوك والنّـوى
بقلب طـوى الأمداء بـالشـوق والوجـدِ
إذا الليل أضنـانـا هـوىً وتشرداً
نسجنـا لها وعـدا عصيّـا على الـوعـدِ
حفـرنـا أخـاديـد الـوجـوه صبـابـة
ليفتر ثغـر الـورد في صخـرهـا الصّلـدِ
فصبت لنـا حمى اللتيّـا هـي التي
تأبّت فلم تطلع لنـا وردة الـوردِ
تـدور بنـا - من غنجهـا - ألف دورة
من الحل والترحـال والقُـرْب والبعـدِ
رضعنـا الهوى حتى إذا اشتـدَّ عـودنـا
فطمنـا على الكـأس المليئـة بـالصـدِ
ظمئنـا وكـانت غيمـة تسحـر المدى
مفـرغـة إلا مـن البرق والـرّعـدِ
تـراوغنـا وهي التماعـةُ دربنـا
إذا مـا تغـرّبنـا مـن المهـد للحـدِ
هي النهـر لكنّـا صبـاحَ تـدفقت
ظفـرنـا مـن الأمـواج بـالجزْر لا المدِ

صحافتنا العربية وموقعها من الصحافة العالمية

بقلم الأستاذ: ياسر الفهد - سورية

أحرزت الصحافة العربية منذ نشأتها الأولى في منتصف القرن التاسع عشر وحتى اليوم تقدما كبيرا لا يستهان به، سواء في المجال الكمي أو الكيفي أو الطباعي. وبالرغم من ان هذه الصحافة لم ترق إلى مستوى الصحافة الأجنبية المتطورة التي سبقت الصحافة العربية من الناحية التاريخية بمقدار قرن ونصف من الزمان، فقد ظهرت أول صحيفة اميركية في عام ١٧٠٤م. إلا أن الفجوة بين الصحافتين - لاسيما في المجال المعرفي والتثقيفي - أقل بكثير مما هي عليه في مجالات اخرى، كالمجال التقاني والصناعي.

سنحاول في هذا المقال رصد بعض أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين الصحافة العربية والصحافة العالمية. وإذا جاءت نتيجة المقارنة في صالح الثانية من بعض الجوانب، فإن هذا لا يقلل من شأن الأولى ودورها الفعال. وعلينا ألا ننسى أن في حوزة الصحافة الأجنبية وتحت تصرفها إمكانات مالية وتقانية وكفايات بشرية وتسهيلات مختلفة كبيرة لا تتوافر للصحافة العربية، ناهيك عن وجود أعداد هائلة من القراء الذين يقبلون بإستمرار على شراء الصحف والمجلات، مما يؤدي إلى إنعاش صناعة الصحافة وزيادة مردودها المادي.

ان الهدف الأساس من المقارنة هو استكشاف الطرق والمجالات التي نستطيع من خلالها أن نفيد من الصحافة المتقدمة في تطوير صحافتنا العربية وإغنائها. ولنبدأ بتقصي جوانب الشبه في الصحافتين: فهناك تشابه في الهدف الصحفي، فكلتا الصحافتين تهدفان إلى الاعلام والتثقيف والتوجيه ورصد التطورات السياسية على الصعيدين المحلي والعالمي والتعريف بالاعلام والمنجزات ورسم الحلول للمشكلات، وغير ذلك. وهناك تشابه في المضمون الصحفي. فكلتاهما تعنيان بنشر مختلف جوانب المعرفة من علوم وآداب وفنون، من خلال ابواب وزوايا ثابتة عن طريق دراسات ومقالات متفرقة. وهناك بالطبع نواح تختلف فيهما الصحافتان من حيث المضمون المعرفي. إلا انهما تشتركان ايضا في سمة الجمع بين التنوع والتخصص. فكما ان الصحافة العربية تضم مجلات منوعة اكاديمية رفيعة كشؤون عربية، وعالم الفكر، والفكر العربي، والمعرفة، فإن الصحافة الأجنبية تتضمن مجلات مشابهة مثل اتلانتيك، وهاربرز، وساتردي.

وكما ان هناك مجلات عربية منوعة شعبية مثل العربي والفيصل والمنتدى، فإنه توجد ايضا مجلات أجنبية مقابلة مثل لوك وسبوتنيك والاكسبريس. ومثلما نجد مجلات عربية متخصصة مثل الكومبيوتر وعالم الكتب والطاقة الذرية والمهندس العربي والبلسم والمعلم العربي والدفاع والحياة المسرحية، فإننا نجد ايضا مجلات أجنبية متخصصة مثل ساينس جورنال وثييتر آرتس واميركان ميدكال جورنال وفارم جورنال. وكما تنتشر في الوطن العربي مجلات تجمع بين التخصص والسياسة والتنوع الفكري الثقافي مثل المجلة والأسبوع العربي والصياد والشراع والديار والكفاح العربي والمصور وآخر ساعة تصدر ايضا في الأقطار الأجنبية مجلات مثل التايم والنيوزويك ودير شبيغل، وكما تهتم بعض المجلات الأجنبية مثل الريدرز دايجست بنشر المقالات القصيرة المكثفة فإن مجلات عربية مثل المجلة العربية، تعنى بهذا اللون من المقالات دون غيره.

انتشار الصحافة وتأثيرها:

تشترك الصحافتان في ظاهرة الانتشار على مستويين، أحدهما محلي محدود، وثانيهما عالمي واسع.

فكما ان هناك صحفا عربية تنتشر على



احرزت الصحافة العربية والاجنبية تقدماً كبيرا في المجال الكمي والطباعي

صعيد عالمي مثل الأهرام والشرق الأوسط والحياة والرأي العام، توجد ايضا صحف اجنبية تصل إلى اقصى بقاع العالم مثل الفيغارو والازفستيا والواشنطن بوست والديلي ميرور والهيرالد تريبيون. وهناك بالطبع اوجه تشابه اخرى بين الصحافتين، وما ذكرناه منها مجرد أمثلة.

وننتقل الآن إلى الجانب المقابل، اي إلى اوجه الخلاف بين الصحافتين، وهو الأهم:

ان دور الصحافة والصحفي في الدول المتطورة اكبر تأثيرا منه في الدول العربية. فتوافر حرية الكلمة هناك يتيح للكاتب ان يكتب حول جميع المشكلات والقضايا التي تواجه أمته، بما فيها المشكلات السياسية، مما يفتح الباب على مصراعيه امام ايجاد الحلول والعلاجات المناسبة. فالكاتب هناك يشعر بالأمن والطمأنينة ولا يخشى الرقابة الاعلامية أو الرقابة الاجتماعية، فمبدأ الحوار الحر هو السائد، وإذا ابدى الصحفي رأيا لم يعجب جهات أو أفراد آخرين، فإن هؤلاء يردون عليه في الصحيفة نفسها أو في أية صحف اخرى، دون ان يستتبع ذلك أية مسؤولية أو غيرها، ولكن علينا ان نلاحظ ان الصحافة الأجنبية تضع حدودا على التشهير بالآخرين، وهي ملزمة بمراعاة نصوص القانون التي تحرم تشويه السمعة الشخصية لأي فرد تشويها مقصودا، ولا سيما إذا لم تكن هناك أدلة مؤكدة ضده. لذلك، فإن كثيرا من كبريات الصحف العالمية تخصص محاميا يقوم بقراءة بعض المواد الحساسة قبل دفعها إلى المطبعة للتأكد من عدم تعارضها مع النصوص القانونية السائدة في البلاد. أما في الاقطار العربية فلا حاجة لمثل هؤلاء المحامين، لأن رقابة الدولة قائمة بشكل دائم، والكاتب لا يستطيع ان يعبر عن رأيه الا ضمن الحدود المرسومة التي تسمح بها هذه الرقابة. وبالإضافة إلى ذلك، هناك رقابة المجتمع التي لا تسمح بالخروج على العادات والتقاليد.

خلاصة القول أن الصحافة في الاقطار المتقدمة تملك نفوذا وفعالية وتأثيرا تستطيع معه ان تؤثر في الرأي العام. وكلنا يستذكر دور الصحافة الاميركية في اثاره ما يسمى بقضية ووتر جيت وايران جيت والكونترا وما استتبع ذلك من تأثير سياسي. ومن جهة ثانية، فإن خطط التنمية والتربية والمشروعات الثقافية في الدول المتقدمة تتأثر بدرجة ملحوظة بالصحافة، وبما يكتب من خلالها، لا سيما في مجال الأبحاث المتخصصة. أما في الوطن العربي، فإن للصحافة دورا علميا وثقافيا كبيرا دون ادنى ريب، ولكن دورها في التأثير السياسي محدود.

استقلال الصحافة:

نتيجة لميل الحكومات في معظم الاقطار إلى توجيه الصحافة ووضعها تحت سيطرتها، فإننا نجد ان عدد الصحف والمجلات الخاصة والمستقلة قليل نسبيا بالقياس إلى عدد الدوريات الرسمية التي تصدرها الدول بوزاراتها ومؤسساتها المختلفة. أما في الدول الغربية، فإن حرية الرأي وتعددية الاتجاهات تنعكسان ايجابيا على حرية اصدار دوريات خاصة تعبر كل منها عن وجهة نظر او اتجاه خاص بها.

وعندما تورد دورية ما رأيا لا يرضي الدولة، فقد ينبري احد ممثليها للرد عليه وتفنيده بطريقة منطقية خالية من الخصومة أو قد ينشر مقالا في الدورية نفسها، أو في غيرها، يقدم فيه أدلة معاكسة ودحضا لما أثير في الرأي الأول. وهكذا، فإن الصحافة

الديمقراطية تشجع تعددية الـرأي فيما تنشره الـدوريـات، في حين ان الصحافة العربية لا تستطيع ان تذهب بعيدا في هذا المجال، مما يحدّ من فرص اصدار دوريات تعبر عن آراء ومفاهيم مستقلة .

ان العلوم والثقافات المختلفة تتطور في الاقطار المتقدمة بطريقة اسرع من تطورها في البلدان العربية كما ان مصادر المعلومات والثقافة عندهم اوسع وأغنى مما هي عندنا .

ويستتبع ذلك ان المضمون العلمي والثقافي في صحافتهم اكثر حداثة من مثيله في صحافتنا كما انه يعنى بموضوعات وفروع علمية حديثة مثل الالكترونيات والليزر والمستقبليات والاتصال والتلوث والفضاء والحاسوب والمعلوماتية ، اكثر مما تعنى صحافتنا . ولكن الصحف العربية تعوض عن هذا بالمقالات المترجمة المنقولة عن احدث الصحف والمجلات العلمية . واكثر من ذلك فإنه تصدر في الوطن العربي مجلات متخصصة بنشر المادة المترجمة وحدها مثل مجلات العلوم والثقافة العالمية والآداب الأجنبية وغيرها .

إهتمامات الصحافة :

وخلافا للصحافة الأجنبية التي تركز في اهتمامها على العلوم الحديثة ، نجد ان الصحافة العربية أكثر اهتماما منها ، بالتراث وقضاياه . فالعرب يفخرون دائما بماضيهم المجيد ويعتزون بانتصاراتهم السابقة . وهذا الاهتمام يشكل سلاحا ذا حدين . وهو قد ينطوي على تأثير ايجابي أو تأثير سلبي . فعندما يعد العرب الرجوع إلى ماضيهم الغابر وسيلة وحافزا لحث الخطى وتجديد المجد ، يصبح استلهام التراث مصدر خير وفائدة . اما عندما تكون هناك مبالغة في هذا المجال ، فإن الأمر ينقلب إلى الضد ، وقد يصبح التغني بالانتصارات السابقة عندها وسيلة للتخدير والاكتفاء بما تم تحقيقه .

والمادة التي تعنى بلم الشمل وتوحيد الصفوف في الصحافة العربية اغنى وادسم منها في الصحافة الأجنبية ، فالوطن العربي يعيش تحت وطأة التجزئة والتخلف والفقر ، ويتعرض للتهديد والاخطار المختلفة ، وهو ما زال يسعى إلى التوحيد والاستقلالية وإلى رفع الحيف الذي احاق به طوال فترة الاستعمار . وهذا الوضع ينعكس على ما تنشره صحافتنا من موضوعات قومية وسياسية حادة اللهجة ومفعمة بالالم والشكوى والحماس .

اما الشعوب في الاقطار الغربية فإنها تعيش في حالة توحد ورخاء وطمأنينة ، لذلك نجد ان الموضوعات المنشورة في صحافتها تتجه نحو تطوير الانسان وزيادة رفاهيته وتقدم العلم . وعلى الرغم من ان الفكر القومي والتحليل السياسي واردان في هذه الصحافة ، إلا أننا لا نجد فيها ذلك الحماس الوطني المتدفق .

الدور التجاري والإقتصادي للصحافة :

إن الدور التجاري والإقتصادي للصحافة في الأقطار الغربية واسع وبارز ، فهناك مجلات مثل (سنتشري) الاميركية تعتمد بصورة كبيرة على الاعلانات التي تشكل مصدر دخل للمجلة كما تقوم بخدمة نظامي الانتاج والتوزيع ، وتساعد على توسع الاقتصاد وديناميكيته . وتشجع الاعلانات ، ايضا ، المقاولين على الاستثمار في الصناعة ، وتقود إلى اشتداد التنافس بين المنتجين لصالح المستهلكين . وهناك مئات الشركات والغرف التجارية والصناعية التي تصدر مجلات خاصة بها . وتقوم كل منها بادوار اقتصادية ، بطريقة أو باخرى . كالمجلات التي تعنى بالأبحاث الصناعية والسكك الحديدية والزراعة والبنوك والهندسة البترولية والكهربائية والميكانيكا والأسمدة وغيرها . أما في الصحافة العربية ، فإن دور الاعلانات اقل اهمية. وهذا ينطبق ايضا على مجلات الشركات والغرف الزراعية والصناعية والتجارية العربية ، فهي ذات تأثير اقتصادي محدود لا يمكن مقارنته بتأثير المجلات الأجنبية .

نفوذ الصحفي :

يتمتع الكاتب الصحفي في الأقطار الأجنبية المتطورة بنفوذ قوي ، والمسؤولون هناك يسعون دائما إلى

تشترك الصحافتان العربية والأجنبية في ظاهرة الانتشار المحلي المحدود والعالمي الواسع

خطب وده وكسب رضاه . كما ان وضعه المعاشي والمادي جيد . وهو لا يحتاج إلى المسايرة والمداراة. فإذا اضفنا إلى ذلك توافر حرية الكلمة وتوافر الكثير من التسهيلات العلمية ، يصبح الصحفي حينئذ في وضع يمكنه من القيام بدور فعال في الكشف والتغيير وإيجاد الحلول لمشكلات الأمة، اما الصحفي العربي ، فإن موقفه أضعف ، فهو يحسب حسابا للرقابة الإعلامية وللجماعات المختلفة في المجتمع ، كما انه كثيرا ما يكتب لكي يقيم أوده ، فضلا عن ان مصادر المعلومات المتاحة له فقيرة نسبيا ، كل هذه العوامل مجتمعة تحد احيانا من قدرته على إرضاء قرائه وخدمة بلده .

الحقوق الصحفية :

في الاقطار الأجنبية توجد تشريعات وانظمة قانونية واضحة بشأن التعامل الصحفي والثقافي ، تحفظ حقوق الكتاب والصحف والقراء وتحدد العلاقات والأسس الصحفية السليمة التي يجب ان تسود بين جميع اطراف العملية الثقافية بمعناها الثقافي الواسع وبمعناها الصحفي الضيق ، فالكاتب الدعيّ هناك لا يستطيع ان يسرق مقالا ، بصورة كلية او جزئية ، وينشره باسمه ثم يتقاضى اجرا لقاء نشره ، دون ان يفلت من المحاسبة القانونية ، كما ان الصحيفة لا يسعها ان تجيز مقالا للنشر وتعلم الكاتب بذلك ثم تتراجع عن التزامها بعد مرور الزمن لأسباب خاصة بها ، دون ان تقدم تعويضا للكاتب . وكذلك فإن الصحيفة والكاتب لا يمكنهما تشويه سمعة احد من الناس تشويها متعمدا أو توجيه تهمة ضده دون ان يكون له الحق في تفنيد التهم والدفاع عن نفسه بشتى الطرق . أما بالنسبة للوطن العربي ، فإن هناك بالفعل بعض التشريعات والأنظمة الصحفية والثقافية كتلك التي اسهمت في وضعها بعض المؤسسات التابعة للجامعة العربية . ولكن تطبيقها نادر ، وهناك انتهاكات ومخالفات صحفية كثيرة تمر دون محاسبة وبدلا من مراعاة الشروط القانونية ، نجد ان المزاجية والعلاقات الشخصية والمصالح كثيرا ما تؤدي دورا بارزا في تحديد طبيعة العلاقات الصحفية .

الصور في المجلات :

بالإضافة إلى الاختلافات السابقة ، هناك ايضا تباينات اقل اهمية يجدر ذكرها فبعض المجلات الأجنبية مثل مجلة لايف الاميركية تعتمد على عنصر الصورة اعتمادا كبيرا يصل إلى حد نشر بعض الاخبار وحتى المقالات والقصص بالصور وحدها، اما بهدف اثارة القارىء وشحذ مخيلته وقدرته التحليلة، وأما بقصد اتاحة الفرصة للأميين العاجزين عن القراءة كي يفيدوا من المادة المنشورة بالصور ، لأن هذه هي فرصتهم الوحيدة في هذا المجال . وهذا يذكّرنا بالدور الذي تقوم به الإذاعة والتلفاز في المجال الإعلامي لصالح الأميين العاجزين عن الافادة من المادة المكتوبة في الصحافة . اما في الصحافة العربية فإن النهج الذي يعتمد على نشر الصور وحدها غير وارد على مستوى المجلات المعروفة ، فالصورة فيها تقترن بالخبر والشرح والتحليل .

ومن الاختلافات الاخرى ، مسألة اعتماد الصحافة العربية على الصحافة الأجنبية في حقل الترجمة وفي مجال الرجوع إلى مصادر الأخبار . وفي مقابل ذلك نجد ان الصحافة الأجنبية لا تعتمد على الصحافة العربية ، في هذين الميدانين، إلا بصورة نادرة .

وثمة اختلاف آخر يتجلى في توافر مجلات خاصة للرجال في الصحافة المتطورة إلى جانب المجلات الخاصة بالنساء وتلك المخصصة للأطفال ، وذلك خلافا للصحافة العربية التي لا تصدر فيها سوى مجلات نسائية واخرى للأطفال ، ولا توجد فيها مجلات معروفة تعنى بقضايا الرجال بوصفهم جنسا مذكرا له مشكلاته الخاصة .

ومن الاختلافات الاخرى شيوع ظاهرة في الصحافة الأجنبية بحيث نجد ان عدة مجلات او عدة صحف ، كثيرا ما تندمج في مجلة أو صحيفة واحدة . وهذا الأمر نادر جدا في الصحافة العربية .

التطور التقني :

وإذا تركنا المضمون وانتقلنا إلى الشكل والأدوات ، نجد ان التقانة الطباعية احدث وأكثر تقدما في الصحافة الأجنبية منها في الصحافة العربية ، وهذا يشمل الحرف والتصوير والتلوين والاخراج الفني وسرعة الطباعة وغيرها . ومن الطبيعي ان يكون الأمر كذلك ، لأن التقانة الطباعية جزء من التقانة العامة التي احرزت تقدما كبيرا في الدول المتقدمة . وقد افادت الدوريات العربية التي تطبع في الخارج من هذه التقانة فأصبحت اقرب في طباعتها إلى طباعة الصحافة الأجنبية .

وهكذا، يتبين لنا ان الصحافة الأجنبية تتقدم على الصحافة العربية في مجالات معينة ، والسبب يعزى في ذلك إلى توافر امكانات وتسهيلات مالية وفنية كثيرة لدى الأولى تفوق ما يتوافر للثانية ، وليس إلى عجز الصحافة العربية أو الصحفيين العرب عن التجويد في الكتابة والعمل الصحفي . وهذه الهوة بين الصحافتين يمكن ردمها إلى حد معين إذا توافر للصحافة العربية درجة اكبر من حرية الكلمة ومخصصات مالية أكثر وتقانة طباعية احدث ، كما ان من المفيد جدا الاطلاع على التجارب الصحفية للدول المتقدمة ودراستها دراسة علمية متأنية لتطبيق ما يصلح منها وما يناسب اوضاعنا الخاصة . ولا شك ان الطريق مازالت شاقة حتى نصل إلى مرحلة تستطيع فيها صحافتنا ان تحدث تغييرا جوهريا في حياتنا السياسية والإجتماعية والإقتصادية ■

تصوير عبدالله الدبيس - ارامكو السعودية

العلاقة بين اللسانيات والنقد الأدبي

بقلم: د. مازن الوعر - جامعة البحرين - البحرين

منذ البداية أحب أن أقول ليس هناك لسانيات نظرية وتطبيقية في الوطن العربي، هناك اهتمامات لسانية مبعثرة، وترجمات لسانية شخصية، ومداخل بسيطة جداً لهذا العلم تقف على هامشه تماماً. الإهتمامات اللسانية أتت من أناس غير مختصين باللسانيات كانوا قد انبهروا بهذا العلم وأصبحوا يدورون حوله دون الغوص فيه. والترجمات اللسانية الشخصية لم تقم على خطة قومية - أكاديمية تأخذ بعين الإعتبار تطوير الدرس اللغوي العربي. لقد كان منطقها الإنبهار والإعجاب ببعض مفاهيم هذا العلم، ثم إن أغلب هذه الترجمات جاء هشاً على مستوى المصطلح اللساني ومستوى كيفية فهم المدلول اللساني ونقله إلى العربية. أما المداخل البسيطة لهذا العلم فقد أتت من المختصين ولكنها مداخل لم تتعد المفاهيم الأساسية، وبقيت غريبة على اللغة العربية (تطبيقياً). إن كل هذه الجهود مبعثرة لم تُفد اللغة العربية منها شيئاً، بل أضرتها أكثر مما نفعتها. فقد دفعت المتعصبين لأن يستخدموا هذه الجهود المبعثرة ضد اللسانيات الحقيقة التي لو درست جيداً ونقلت نقلة واعية لأفادت اللغة العربية كثيراً. والآن كيف يستطيع النقد الأدبي أن يستفيد من اللسانيات العربية وهي بهذه الحالة من الفوضى على صعيد المصطلح والمادة اللسانية التي يمثلها هذا المصطلح؟

أظن أن كل علم جديد لابد أن يشعر بنوع من الإغتراب عندما ينقل من مكان إلى مكان ولابد أن يواجه بعض العثرات في أثناء تشكله كعلم. من هنا لابد للعلم الجديد من وقت كاف حتى يستطيع الباحثون نقله إلى اللغة العربية، ولابد في الوقت نفسه من استقراء للتراث اللغوي العربي لتحديد مصطلحاته ومفاهيمه التي تساعدنا على نقل العلم الجديد إلى اللغة العربية.

هناك جهود جدية من أجل التغلب على كل الصعوبات التي تعترض مسيرة هذا العلم، ولكن هذه الجهود مبعثرة وضعيفة، بل إن بعض النقاد يريد من هذه الجهود الجدية القليلة أن تكون تابعة لنقدهم التنظيري، حتى ان بعضهم يريد أن ينفخ في هذه الجهود لتبدو كأنها ذروة اللسانيات فهم يأخذون نسبة الـ ٢٠٪ من اللسانيات التي لها علاقة بالنقد الأدبي ويضعونها تحت المجهر لتصبح مكبرة. ذلك أن اللسانيات عندهم ليست سوى هذه النسبة. أما اللسانيات الحقيقية (Pure Linguistics) فترى أغلب الناس تهرب منها لسبب بسيط جداً هو أنها تحتاج إلى جنود مخلصين يكرسون حياتهم للتعامل معها. ذلك أن اللسانيات الحقيقية العلمية الصارمة (Hard Science) لها علاقة وشيجة بالعلوم الطبيعية كالرياضيات والفيزياء والبيولوجيا والهندسة الإلكترونية والمعلوميات والمخابر الصوتية.

أما علاقة اللسانيات بالنقد الأدبي فتأتي من خلال ما يعرف بـ «اللسانيات الإجتماعية» (Socialinguistics) التي تعنى بالتغيرات الأسلوبية للغة ومدى إسهام الطبقات الإجتماعية في هذه التغيرات. من هنا كان ما يعرف بـ «الأسلوبيات» أو «الأسلوبية» (Stylistics) التي تدرس الظاهرة الأسلوبية المتنوعة في المجتمع، وبما أن الظواهر هي ظواهر إجتماعية متلونة ومختلفة في أساليبها فإنها تدخل ضمن ما يعرف بـ «الأسلوبيات».

النقد الأدبي ينبغي أن يستفيد من النتائج التي توصلت إليها الأسلوبيات، ذلك لأنها تدرس الظاهرة الأدبية وغير الأدبية، المنطوقة منها وغير المنطوقة. ثم إن الأسلوبيات ليست أسلوبية واحدة، فهناك الأسلوبية الإجتماعية التي أنبنى عليها ما يسمى اليوم «تحليل الخطاب» (Discourse Analysis) الذي أخذ يحل محل هذه الأسلوبيات جميعاً ويضمنها نظريته.

أما نظرية تشومسكي فلا أظن أن النقد الأدبي قد استفاد منها كبير استفادة ذلك أن هذا العالم عندما وضع نظريته اللسانية لم يكن في ذهنه أنه سيضعها للنقد الأدبي. إن هدف تشومسكي الأول والأخير «المعرفة اللغوية» (Linguistic Knowledge) العاملة في الدماغ التي تشكل مع معارف أخرى ما يسميه تشومسكي «العقل».

فقد رأى هذا العالم أن كل الأدوات التي استعملها اللسانيون قبله ولا سيما التاريخية والوصفية والبنيوية هي أدوات دقيقة لمعرفة هذه «المعرفة اللغوية». من هنا ذهب الرجل إلى العلوم الطبيعية (Natural Sciences) واستعار أدواتها التطبيقية بادىء الأمر لتصبح هذه الأدوات بعد ذلك جزءاً لا يتجزأ من اللسانيات الحديثة.

ولكن النقد الأدبي استفاد من هذه النظرية ولا سيما من بعض مفاهيمها كمفهوم «القواعدية» و «القبولية» و«البنية السطحية» و « البنية العميقة» و«المقدرة اللغوية» و«الأداء الغوي».

هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية التطبيقية، فلا أظن أن النقد الأدبي قد استفاد من اللسانيات استفادة جدية، لقد بقيت الإستفادة في حدود الإنبهار والشكل دون أن تدخل في

الأعماق. وربما يعود ذلك إلى رغبة بعض النقاد في جعل النقد الأدبي في مرتبة أعلى من مرتبة اللسانيات.

وعلى وجه الدقة هناك بعض النقاد الذين يريدون أن تكون اللسانيات تابعة للنقد لا يتعاملون معها تعاملاً متفاعلاً يهدف إلى الإفادة والإستفادة والأخذ والعطاء.

على كل حال نأمل من مؤتمرات النقد الأدبي التي تعقد في رحاب الجامعات العربية الإلتفات إلى هذه الظاهرة للخروج بصيغة علمية لنظرية نقدية عربية حديثة قائمة على النسبيه والإنفتاح من جهة، والتكاملية بين الحديث والقديم من جهة أخرى.

النظرية، المنهج، الفرضية

الفرضية مع فرضيات أخرى تشكل المنهج. والمناهج تشكل النظرية التي هي مبادىء وقواعد وضوابط تبلور نفسها من خلال المناهج والفرضيات الجديدة التي تطور نفسها من خلال اكتشافها لأشياء جديدة في الظاهرة المدروسة.

وبكلمة أخرى، لا وجود لنظرية ومنهج وفرضية من فراغ وفي فراغ. إن هذه المفاهيم تتشكل تشكلاً طبيعياً من خلال الظاهرة المدروسة. فالباحث يصف الظاهرة ويشرحها فقط، والوصف والشرح يقودانه إلى الإفتراض ووضع فرضيات خاضعة للإمتحان. إن الذي يمتحن الفرضيات ويضعها على محك النقد هو المكتشَف «بفتح الشين» في الظاهرة. وهكذا فإن هذه الفرضيات السليمة والمبنية على الظواهر المدروسة تقود الباحث لأن يصوغ المنهج. ولكن هذا الباحث، كلما تعمق في الدراسة يكتشف أن الظاهرة المدروسة فيها جوانب مخفية لم يستطع إكتشافها .. لذلك نراه يعدل في الفرضيات السابقة ويبني فرضيات جديدة من أجل أخذ هذا الجانب المكتشف بالحسبان. وهذا يقوده لأن يبني منهجاً آخر أشد قوة من الأول. هذه الفرضيات المتجددة التي تقود إلى صياغة مناهج متجددة والتي بدورها تصوغ نظريات دائمة التطور هي التي تطور العلم وتجعله غنياً وخصباً.

الآن ما مدى وضوح هذه المفاهيم العلمية في اللسانيات العربية والنقد الأدبي؟ الجواب عندي هو أن هذه المفاهيم ما زالت غامضة، إن أهم صفة في العلم هي تحد يد المصطلح ثم تحديد المفهوم الذي يدل عليه المصطلح وكثير من الباحثين يستخدمون عشرات المصطلحات العربية المختلفة ليدلوا على مفهوم غربي معين، وتراهم في الوقت نفسه يستخدمون مفاهيم كثيرة متناقضة ويضغطونها في مصطلح عربي واحد.

إن وضوح المصطلح وما يدل عليه يتم من خلال وعي الباحث وجديته في معرفة الشيء. وينبغي أن نعترف أن هناك فئة مثقفة كبيرة تعيش على فوضى المصطلح العربي، فما بالك بالباحث الواعي والجدي الذي يعرف المفهوم تماماً ويريد وضعه في مصطلح دقيق جداً عندما يواجه مثل هذه الفئة؟

هنا ينبثق التحدي الحقيقي الذي يتجلى في صراع المصالح، المصالح العلمية المتمثلة بالعلماء الواعين والجادين الذين يريدون بناء الأمة، والمصالح المادية المتمثلة بأشباه المثقفين والباحثين المزيفين أصحاب النجومية الآنية الذين يريدون بناء أمجادهم على أكتاف جهود غيرهم من خلال البهرجة والتأنق في استعمال الكلمات الموسيقية الخادعة دون اعتبار لمصلحة الأمة وأخلاقها وعلمها وضميرها.

المصطلح اللساني والنقدي وما يدلان عليه سليم وصحيح عند العرب القدماء، ذلك لأنهم كانوا يعرفون مبادىء المصطلحية والمعجمية تماماً، بل لقد طوروا علماً خاصاً بهذا الحقل يدعى بـ «علم اللغة» الذي يعني بالفروق القائمة بين المصطلحات وما تدل عليه هذه المصطلحات.

أما المصطلح اللساني والنقدي العربي الحديث وما يدلان عليه فهو غير محدد وليس له قواعد يقوم عليها، بل هو اجتهاد شخصي. ولكن ينبغي ألا ننكر جهود بعض الباحثين والمؤسسات العلمية لحل هذه المعضلة كالجهد الذي قام به بعض اللسانيين من خلال مكتب تنسيق التعريب في الرباط - المغرب لإصدار معجم لساني بثلاث لغات: العربية والإنكليزية والفرنسية. إلا أن العمل غير كاف ولايتناسب مع توالد المصطلحات الكثيرة التي تحتاج إلى مقابل عربي.

وينبغي علينا أن نعترف أن الفوضى في المصطلح والمفهوم اللساني والنقدي قد تجاوزت مرحلة الأزمة وبدأت تدخل في مرحلة التنظيم. وهذا يعود إلى بعض أشكال التعاون والتنسيق على مستوى الأفراد ومستوى المؤسسات العربية الرسمية.

إن ما فعلته في هذا المجال هو محاولة لنقل جزئية تتعلق بالجانب التركيبي والدلالي عند العرب القدماء وعند الغربيين المحدثين على مستوى المناهج ومستوى المواد اللغوية. لقد حاولت بناء نموذج لساني متواضع يمكنه أن يصف ويشرح التراكيب الأساسية في اللغة العربية بدقة.

وبكلمة أخرى لقد زاوجت بين نحو تشومسكي ودلاليات كوك العالمين اللذين هما على نقيض تام، ثم وضعت هذه المزاوجة في مصطلحات ومفاهيم منهجية عربية متلائمة مع هذه المزاوجة. وحاولت أن أفرش المنطلقات الفلسفية العربية القديمة من أجل أن تنطلق هذه المزاوجة نحو وصف أفضل وشرح أعمق للتراكيب العربية من أجل حوسبتها علمياً في الحاسوب. وهذا يعد غيضاً بسيطاً من فيض كبير جداً في اللسانيات. هذا شيء، والشيء الآخر أنني لم أطلق على هذه المحاولة «نظرية» وإنما أطلقت عليها «نحو نظرية» والفرق كما نرى واضح. وقد تم ذلك من خلال دراستي وتجربتي التخصصية في هذا العلم كما هو عند الغرب ومن خلال تجربتي ودراستي التخصصية في علوم اللغة العربية في جامعة دمشق. وأتمنى أن تتكرر التجربة عند كل الطلاب الذين يريدون التخصص في هذا العلم لتكون الإفادة أعظم. أي أن يذهب الطلاب العرب من أقسام اللغة العربية إلى أوربا أو أمريكا ليتعلموا اللغة الأجنبية تعلماً عميقاً ثم يلتحقوا بأقسام اللسانيات ليحصلوا هذا العلم ثم يعودوا إلى أقسام اللغة العربية في أوطانهم لنقل ما عرفوه إلى اللغة العربية.

لقد قلت عليهم أن يلتحقوا بأقسام اللسانيات ولم أقل بأقسام اللغة العربية. وكثيرون هم أولئك الذين ذهبوا للتخصص

في هـذا العلم إلى أوربا أو أمـريكـا ولكنهم عندما وجدوا أنه يحتاج إلى جهد كبير هربوا إلى أقسـام اللغـة العربيـة في الغـرب تلك الأقسام المنشأة أصلاً للطلاب الأجانب.

هذا أمر مهم جداً إذا أردنا للسانيات أن تنقل نقلة واعية إلى الجامعات العربية، لأن أقسام اللغات الأجنبية «ولا سيما الإنكليزية والفرنسيـة» في الوطن العربي فيهـا مئات الـزملاء المختصين في اللسـانيـات ولكن الـذين يطبقـون هـذا العلم على العـر بيـة وينقلونه إليها قليلـون جداً . وما يهمنا نحن هـو النقلـة الـواعيـة لهذا العلم إلى اللغـة العربيـة أولاً ثم استثمار المعـرفة اللسـانية الحقة لـدفع عجلة اللغـة العربيـة مصطلحاً ومدلولاً ثانياً.

الـنموذَج وَالـنموذَج البَـديل

مـا هي طبيعـة العلاقـة بين النمـوذج اللساني والنمـوذج النقدي ؟ ثم هل يمكن للنمـوذج اللساني أن يحل محل النمـوذج النقدي؟

الـواقع أن اللسانيـات لا يمكن أن تحل محل علم آخر، ولا يمكن لأي علم معرفي له حده ومـوضوعـه وغايتـه أن يحل محل علم آخر. إن أهم صفة في العلم هي النسبية في استنباط الحقـائق ثم الانفتـاح على العالم والثقافات من أجل تطوير أفضل في مستوى الأدوات التي يعمـل بها العلم ومستـــوى الظاهرة التي يدرسها ذلك العلم.

وهكـذا لا يمكن للنموذج اللسـاني أن يحل محل النموذج النقدي، فكل له مجاله. ولكن نستطيع القول أن اللسانيات يمكنها أن ترفـد النقد الأدبي وتغنيـه وتدفعـه نحو «العلميـة» كما أن النقـد الأدبي يمكنـه أن يطور كثيراً في النظرية اللسـانيـة العامة من خلال نقد الأجناس الأدبية كافة، المنطوقة منها والمكتـوبة. هذا من جهـة ، ومن جهة أخرى يمكن لنموذج نقدي أدبي متطور أن يحل محل نمـوذج نقـدي آخر بعـد فهمـه وهضمه وتجاوزه لما هـو أفضل وأحسن في العمليـة النقديـة. ويمكن لنموذج لسـاني متطـور أن يحل محل نموذج لسـاني آخـر بالمعنى نفسه أيضاً.

ويمكن القول أن النمـوذج الأسلوبي أو ما يسمى « الأسلوبيات» حل محل «البلاغة الغـربيـة» كما أن «علـم تحليل الخطـاب» المعـــاصر يحل يـومـاً بعــد يــوم محل «الأسلـوبيات». وهـذا يعني أن علم تحليل الخطـاب هو نفسـه الأسلوبيـات وما بعـد الأسلـوبيـات. هذه الصفـة العلميـة نطلق عليها صفة «تـراكمية العلم» أي أن القديم «من الجنس المعــرفي نفسـه» يُضمَن في الحديث، كما أن الحديث يُضمَن في مـا هو أحدث منه في حركة التاريخ.

إن نظريـة تشـومسكـي التـوليـديـة والتحويليـة خير مثال على مبدأ «تـراكمية العلم» فنحـــو المواقع المحـــدودة مثـلاً متضمن في نحـو بنيـــة العبـارة، وهـذان النحـوان متضمنـــان في النحـو التحـويلي الـذي هـــو بـدوره متضمــن فيما يسميـه تشومسكي الآن : «النحو العاملي - العائد » (Government and Binding).

يـدخل في هـذا الإطـــار دعـوة بعض الباحثين إلى القطيعة المعرفية عن التراث بكل منـــاهجـــه مــن أجل الإنخـــراط في النموذج النقدي الغربي المعاصر. لنفترض الآن أننا وافقنـا هؤلاء البـاحثين على هذه الـدعوة، فكيف تشكـل مثل هذا النمـوذج النقدي الغـربي الحديث ؟ الجواب العلمي هـو أن هذا النمـوذج مثله مثل أي نمـوذج غربي معـرفي قد تشكل وقـام على أكتاف الماضي المعرفي، أي أنـه صيغ بعـد رواية ودرايـة وهضم وفهـم لكل التراث النقـدي الغربي القديم مستفيـداً أيضاً من التيارات النقدية العالمية القديمة.

والآن نـريـد أن نسأل : هل يمكن لهذا النموذج النقدي الغربي الحديث أن يطبق على الأجناس الأدبية العربية التي هي من صميم الإنسان العربي «كالشعر الذي يعتبر ديوان العرب» ؟ ولنفترض أيضاً أن التطبيق قـد تم «مع أن هـذا الإفتراض خطأ علمي» فإن السؤال الثـالث الذي يطـرح نفسه أين ستكـون مساهمة الإنســان العـربي في التكـوين الحضـاري الإنساني المعـاصر ؟ وأين سيكـون موقع العقل العـربي النقدي الحديث من كل هذه التفاعـلات الحضارية بـين الأمـم ؟

يبدو لي أن مثل هذه الدعوات هي وجه من وجـوه الإنخــراط الكلي في النمـوذج الغـربي الحضـاري الكلي الذي يـريـد من الأمم كلهـا أن تكـون مجرد أدوات منفعلـة ومتأثرة فقط. وحين تكون فـاعلة وبنـاءة في التكوين الحضاري من خـلال طرح نماذج حضـارية مختلفة تشكل تهديداً لهذا النموذج.

ويتجلى ذلك من خلال تصـدير بعض الباحثين في البـداية عنـاوين مشروعاتهم بعبارات طمـوحة مثل «نحـو بديـل جذري لعروض الخليـل» أو «نحو بديـل لساني في نقد الأدب» ... ثم ما يلبثون أن يحذفوا مثل هذه العناوين في الطبعات اللاحقة.

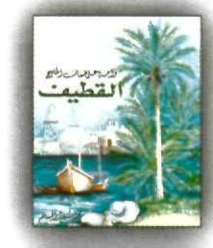
الواقع أنـه يمكننا تفسير هذه الظـاهرة تفسيرات عـــدة، ولكل تفسير مسـوغـــه العلمي . إن تغيير العنوان يمكـن أن يكون نتيجـة طبيعية لتغير بعض متن الكتـاب أو تعديلـه، وهذا التغيير مشروع لأن البـاحث ينبغي أن يكون في حالـة منفتحة ومتطورة نسبيـاً مع كل ما يستجـد في بحثه وحقلـه ومعـرفته. ويمكــن أن يكون التغيير نتيجـة لعدم الإختيار المناسب للعنوان منذ الطبعة الأولى، ويكون التغيير والتطوير هذا نتيجة لـردود الفعل المختلفـة من المتلقي تجاه العمل الـذي وضعـه البـاحث، وعلى هـذه الردود يبني حكمه ويغير في العنوان. ولكن هـذا التغيير من وجهـة نظـر علميـة تغيير سلبي لا علاقة لـه بالتطور المنهجي لمتن الكتـاب وإنما يـرتبط بـردود فعل المتلقي وخلفيته الثقـافية والإجتماعيـة والدينيـة، وأخيراً وليس آخـراً الاثنيـة «العـرقيـة». والـواقع إن كل بـاحث يحق له أن يعـرض وجهـة نظره ويبين خصـائص عملـه ولكن دون إلغاء لوجود الآخرين.

وهنـاك بعض البـــاحثين لا يروقـــه البحث إلا إذا هدم كل شيء أتى به القدماء أو المحـدثون، وتـرى بعضهم الآخـر، لكي يصبح «ادونيس» الشعـر، لابد أن يهدم كل شيء ساكن في ميثاق التاريخ، وترى فريقاً ثالثاً، لكي يكون نقده محترماً، يجاري نقد القـــرن العشرين، لابــد لــه أن يهدم كل النظريات النقدية السابقة.

أعتقد أن الجديـة والأصالـة ستكشفان الـزيف العلمي مهما تلبّس وتلون بلبـوس ولـــون الإعــــلام الصحفـي والإذاعي والتلفـزيـوني. وكما يقول العبقـري نعـوم تشـــومسكي « مهما أختلفت النظـريـات والمناهج فإن العبرة تظل في النتائج » ■

كتب مهداة

* «القطيف ؛ واحة على ضفاف الخليج» من تأليف محمد سعيد المسلم، ويقع هذا الكتاب في ٤٥٤ صفحة، وفيه يدرس الكاتب موقع مدينة القطيف الجغرافي والتاريخي، ويتتبع جذور السكان وعاداتهم وتقاليدهم وألبستهم ولهجاتهم المحلية وامثالهم الشعبية. كما يدرس اهمية القطيف الاقتصادية ونظم حياتها التجارية والزراعية، وفي فصل آخر يتناول اسهامات ادبائها في الأدب القديم والمعاصر، والكتاب مزود بصور ورسوم وخرائط توضيحية.



* «العقل العربي واعادة التشكيل» من تأليف الدكتور عبد الرحمن الطريري، وصدر ضمن سلسلة كتاب الأمة التي تصدرها وزارة الأوقاف في قطر، ويعالج الكتاب كيفية اعادة بناء الحاضر والاستشراف الصحيح للمستقبل، وتجديد امر الدين، وتحقيق الوعي الحضاري، كما يتناول قضية اعادة التشكيل الثقافي في ضوء قيم الكتاب والسنة، ومفاهيم اخرى مثل العقل والثقافة قبل الاسلام وبعده.



* «نقشان من شبه جزيرة سيناء»، دراسة علمية أعدها الدكتور علي إبراهيم غبان، وأصدرتها جامعة الملك سعود، وتقع في ١٥٦ صفحة من القطع المتوسط، وهي تعالج نقشين اثريين وجدا على صخرتين من صخور شبه جزيرة سيناء احدهما: يتحدث عن عمارة السلطان الغوري، والأماكن المقدسة في الحجاز، والثاني عبارة عن أثر كتابي ملحق بالأول، والدراسة تمزج بين الدراسة الفنية لخط هذين النقشين، وبين الدراسة الحضارية لمضمون نصيهما.



* «تاريخ المخلاف السليماني» للمؤلف محمد بن احمد العقيلي، وقد صدر في مجلدين عن شركة العقيلي في جازان، وقد درس فيهما الكاتب تاريخ المخلاف السليماني والاقتصادي والاجتماعي والعمراني معتمدا على مخطوطات اثرية قيمة ووثائق تاريخية، ويعد هذا الكتاب اشمل ما كتب عن تاريخ جنوب المملكة ماضيا وحاضرا، ويعد مرجعا اساسيا لكل باحث يتناول تلك المنطقة.



* «استخدم عقلك» من تأليف طوني بوزان، وترجمة: عبدالله مكي، وصدر عن دار البيان العربي في بيروت، وهو يعالج الوظائف المختلفة للعقل والذاكرة، كما يستكشف الخرائط الداخلية للمخ والأعصاب والتفكير الابداعي، ويضع اقتراحات تساعد على التذكر والتركيز، وتمارين شخصية لكيفية تدوين الملاحظات واستعادتها، والكتاب يقع في ١٨٤ صفحة.



* «ايقاعات صحفية» للكاتب احمد علي الشمر، يقع في ٢٠٠ صفحة وهو عبارة عن مقالات متفرقة تناقش بعض قضايا التنمية والتثقيف والتوعية الجماهيرية والاعلام، ويرصد بعض السلوكيات الاجتماعية والعيوب الادارية في مؤسساتنا اضافة إلى بعض الأحداث والقضايا العالمية التي تمس حياتنا.



* «الافصاح عن احاديث مختار الصحاح» كتاب من اعداد ابراهيم الصقير، صدر عن مكتبة الزهراء بالقاهرة ومكتبة الرشد بالرياض، ويقع في ١٦٦ صفحة. والكتاب محاولة جادة للكشف عن بعض الألفاظ الواردة في احاديث نبينا المصطفى وتخريجها من خلال المعاجم اللغوية ومن ثم شرحها وتوثيقها بشكل علمي ومنهجي بغرض تسهيل معانيها وابراز ما فيها من استعارات وتشبيهات ومجازات وحكم.



* «البوابة الجنوبية للاحساء، الطرف في ماضيها وحاضرها» للمؤلف عبدالله حمد المطلق، وهو كتاب ضخم يقع في ٧٩٠ صفحة، ويؤرخ لمنطقة الاحساء عموما، وبلدة الطرف خصوصا ويشرح موقعها ونشأتها ومراحل نموها البشري والعمراني، كما يعالج الحياة الاقتصادية فيها ويذكر العيون الشهيرة فيها وصناعاتها واهم شخصياتها وكتابها، وما فيها من العاب وفنون.



* «عشرون عاما من الترحال» للكاتب عبدالله المدني، يقع في ٢٥٥ صفحة، وهو كتاب يرسم صورة قلمية مشرقة عن ١٣٢ مدينة رحل إليها الكاتب طيلة ما يزيد عن عشرين عاما، وقرأ فيها اجناس البشر ولغاتهم وعاداتهم وانماط معاشهم، وتعلم في رحيله اللغات الانكليزية والفرنسية والألمانية واليونانية، والكاتب يعكس في كتابته ايقاع الترحال والغربة على ذاته من جهة، ومن جهة فإنه يجعل من حس المغامرة وارتياد المجهول طريقاً للتعرف على متغيرات العالم وعادات الشعوب.



* «المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية - حضارة وتاريخ» من تأليف محمد علي الشرفاء، وهو مجلد يقع في حوالي ٣٥٠ صفحة، والناشر غير معروف، وفيه يدرس المؤلف تاريخ المنطقة الشرقية قديما وحديثا معرفا بأهمية موقعها الجغرافي والاقتصادي والاستراتيجي، كما يعرض للآثار التاريخية المكتشفة في بعض مدن المنطقة، ويدرس الحركات الدينية التي ظهرت في المنطقة منذ بزوغ الدعوة الاسلامية حتى ولادة الدولة العربية السعودية الحديثة. وقد بذل الكاتب جهدا كبيرا في تجميع وثائق مادة كتابه من المكتبات ومراكز البحث والمتاحف والباحثين المختصين.



* «فئران الحياة» من تأليف زهير كتبي، يقع في ٣٢٣ صفحة، وهو كتاب يجمع عددا من المقالات التي تعالج بعض السلوكيات الإجتماعية الخاطئة، وتدعو إلى اشاعة الفضيلة وصوت العقل في المجتمع.



* «الذين يحرثون في البحر» من تأليف عبد الرحمن علي فلاح، وصدر عن المكتبة الوطنية في البحرين، ويعالج كثير من الظواهر الاجتماعية والفكرية التي انتشرت في العالم العربي من منظور اسلامي، كما يبين اساليب الغزو الفكري والتغريب ويدعو إلى ضرورة العودة إلى ديننا وقرآننا لكي لا نستعمر فكريا واخلاقيا.





بقلم الأستاذ: قطب الريسوني - المغرب

أثّر فيه

يقولون: «أثّر عليه الحادث تأثيراً كبيراً»، وهذا خطأ والصواب «أثر فيه أو به الحادث تأثيراً كبيراً»، لأن الفعل «أثّر» يتعدى بحرف الجر «في» أو «باء»، فتقول «أثّر فيه أو به»، أي ترك فيه علامة وأثراً، ومن ذلك ما جاء في قول علي، رضي الله عنه «.. فجرت بالرحى حتى أثرت بيدها، واستقت بالقربة حتى أثرت في نحرها» قال عنترة:

أشكو من الهجر في سرٍّ وفي علنٍ ... شكوى تؤثر في صلد من الحجر

وقال الشريف الرضي:

دهر تؤثر في جسمي نوائبهُ ... فما اهتمامي أن أودى بسربالي

فهذه الشواهد اللغوية تؤكد أن حرف الجر الذي يصاحب الفعل «أثر» هو «في»، وليس على.

أسفَ له

يقولون «أسف للأمر»، وهذا خطأ والصواب «أسف على الأمر»، لأن «أسف على الأمر» تعني «ندم على الأمر»، والندم دائماً يستصحب حرف الجر «على» لا «اللام» وهناك شواهد لغوية كثيرة تفيد أن الندم وفعله يستصحبان حرف الجر «على»:

- يقول الله عز وجل في الآية ٨٤ من سورة يوسف ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾.
- وقال الشاعر:

غير مأسوف على زمن ... ينقضي بالهم والحزن

- وقال البحتري:

كلف يكفكف عبرة مهراقة ... أسفاً على عهد الشباب وما انقضى

أذن له بالحديث

يقولون «أذن له بالحديث» وهذا خطأ والصواب «أذن له في الحديث»، أي أباحه له ورخصه، لأن معنى «أذِن بالشيء» «علم به»، غير أن الأقلام تخلطَ بين هذا الاستعمال وذاك، على نحو يفضي إلى التنكب عن جادة اللغة.

أما «أذن» بمعنى «علَم» فقد ورد في قوله تعالى في الآية (٢٧٩) من سورة البقرة ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وقد يفيد «أذن» معنى «استمع»، كما ورد في الآية (٢) من سورة الانشقاق ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

آخذ على

يقولون: «آخذه على إثمه» وهذا خطأ والصواب «آخذه بإثمه»، إذ لم يثبت في الإستعمال الصحيح أن عدي الفعل «آخذ» بحرف الجر «على»، بل الصواب أن يقرن بـ«الباء» كما ورد في أكثر من آية في القرآن الكريم.

- يقول عز وجل في الآية (٢٢٥) من سورة البقرة ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾
- يقول عز وجل في الآية (٦١) من سورة النحل ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.

وقد كان لـ«المنجد» ضلع أي ضلع في إشاعة هذا الخطأ، وذلك حين أورد في مادة «أخذ» قوله «أخذ، آخذه مؤاخذة، وعاتبه على ذنبه وبذنبه، عاقبه عليه».

أيهما أفضل

ويقولون «أيهما أفضل العلم أم التقوى» وهذا خطأ والصواب «أيما أفضل العلم أم التقوى»، ذلك أن «هما» في قولنا «أيهما ضمير يعود إلى اسم ظاهر متأخر عنه لفظاً ورتبة، فضلاً عن أن التركيب يتجافى والمنطق النحوي. فـ«أي» تفيد الإستفهام و«هما» للإخبار، ويكون الإستفهام عن الظاهر أول مرة، فإذا كرر جاز أن نستفهم عن ضميره ولذلك يجب أن نضع «ما» مكان الظاهر، وأن نستهل الجملة بـ«أيما» عوض «أيهما». ومن ثم فلابد للضمير من عائد يعود عليه:

- إما لفظاً ورتبه، كما ورد في قوله تعالى في الآية (٣٩) من سورة (يس): ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾، فالقمر قد تقدم لفظاً ورتبه، إذ أن القمر ورد مفعولاً لفعل محذوف.
- أو لفظاً دون رتبة، كما ورد في قوله تعالى في الآية (١٢٤) من سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ فإبراهيم مفعول مقدم، ورتبته التأخير عن الفاعل وهو «ربه».
- أو رتبة دون اللفظ كما ورد في قوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة «طه»: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ - فموسى هو (الفاعل) ورتبته متقدمة على نفسه.

والنحاة يمنعون عودة الضمير على متأخر لفظاً ورتبة إلا في مواضع معدودة، وقد يرد الضمير على متأخر لفظاً في بعض الأشعار، تحت ذريعة الضرورة الشعرية، ومن ذلك ما جاء في قول الشاعر:

جزى ربه عني عدي بن حاتم ... جزاءَ الكلاب العاديات وقد فَعَلْ


تنمية ثقافة الطفل العربي



الكحل الحجري بين الفائدة والضرر